
عبد الرحمن الشرقاوي

عبد الرحمن الشرقاوي

أرض المعركة

مطبعة الاعتماد بمصر

الإهداء

إلى وطني . . .

[أرض المعركة ، والمأساة ، والأمل !]

عبد الرحمن الشرقاوي

مطبعة الاعتماد بمصر ت ٤٥٥٤٥

مقدمة

نحن فى معركة من أجل الحرية . . .

ومعارك الحرية تعتمد أولا وقبل كل شىء على الشعوب . . فالشعب دائماً هو صاحب المصلحة الأولى فى الدفاع عن حريته . . .

ولعل هذه الحقيقة البسيطة لم تجد طريقها بعد إلى نفوس بعض الذين يريدون أن تكون لهم كلمة نافذة فى هذا البلد . . فتراهم يحقرون من تاريخ هذا الشعب ويهزأون بمقدراته ويلوون الحقائق لياً عنيفاً ليلتهوا إلى أن شعبنا شعب « وادع » .

وهم يريدون «بالوداعة» هنا الاستكانة والخنوع والصبر على الاذلال والمهانة . . .

ولعل بعض هؤلاء قد حدد موقفه نهائياً ضد مصلحة الشعب فهو يريد أن يفرض آراءه ومن ورائها مصالحه بغير طريق الشعب طبعاً . .

ولعل بعضهم قد أعجزه القصور عن أن يصل إلى ما كان يبغيه من ثقة المجموع . . . فشن الحرب على هذا المجموع وراح يتهمه فى حاضره وماضيه . . ويحاول أن يرسم له مستقبلة على الجو الذى يحب . .

ومع ذلك فإن هذا الكتاب لم يصدر لهؤلاء « العباقرة المختارين » بل يصدر لهذه « الجموع » — لى ولك ولأصدقائنا جميعاً — فتاريخنا من حقنا نحن . . .

وعند ما نعرف نحن تاريخنا.. نستطيع أن نلقى منه أضواء على مستقبلنا فنحدد الهدف الذى نريد ونعرف الطريق الواضح الذى يؤدى إلى هذا الهدف . .

أما عن الكتاب نفسه فهو كما نرى من عنوانه « قصص من كفاحنا الشعبي » . . ولن أذكر لك — كما هى العادة فى أمثال هذه المقدمات — أن هذا الكتاب فتح جديد فى عالم الكتابة وأنه لا شك سيحدث دوياً فى الأوساط الأدبية إلى آخر هذه العبارات الجوفاء التى تسمع مثلها على أبواب محال « الصاغة » و « بين الصورين » . . . . ! !

فالحكم على هذا الكتاب ليس من شأنى . . بل هو من شأنك أنت وحدك . . وأنت حر فى أن تصدر ما تراه من أحكام . .

ولكنى سأقول لك كلمة عن بعض ما جاء فى هذا الكتاب . . .

* * *

فقد تعرض المؤلف لفترة من تاريخنا . . هى الفترة التى سبقت دخول الحملة الفرنسية إلى مصر وامتدت حتى وصلت إلى بداية الاحتلال البريطانى

وبالرغم من أن قصة الكفاح الشعبي لم تبدأ فى هذه الفترة ولم تنته عندها كذلك . . . إلا أن هذه السنوات بالذات كانت غنية حقاً غنية حقاً بألوان الكفاح الشعبي فى صوره المختلفة . .

فكان هناك الكفاح الشعبي ضد المستعمر . . .

وكان هناك الكفاح الشعبي ضد الحاكم المستبد . .

وكان هناك الكفاح فى سبيل لقمة العيش . .

ذلك أن فى الفترة التى سبقت دخول الحملة الفرنسية إلى مصر كان الذى يحكم مصر فعلا هم جماعات المماليك . . . صحيح أن الخليفة العثمانى هو الذى

كان له حق السيادة الرسمية على مصر . ولكن كان هذا الحق لا يتعدى الحدود الشكلية وحدها .

وبالرغم من أن المماليك لم يكونوا مصريين فى أصولهم إلا أن حركات المقاومة الشعبية ضدهم لم تأخذ شكل حركات المقاومة ضد المستعمرين .فان طول إقامة المماليك فى مصر وما اكتسبوه من عادات أهلها وأخلاقهم ولغتهم جعلهم أقرب إلى المصريين منهم إلى أى شىء آخر . والشىء المهم أنهم لم يكونوا على الإطلاق يعملون لمصلحة دولة أجنبية. فإنهم لم يعرفوا غير مصالحهم الخاصة . فكان وضعهم بالنسبة لجماهير الشعب فى مصر وضع الطبقة الحاكمة المستغلة لا أكثر ولا أقل . وعلى هذا فإن ماقام ضدهم من حركات شعبية كان يتسم بطابع الحركات التحريرية الداخلية . أى أن هدفها الأول كان وقف الطغيان المحلى .

ذلك أن النظام الاقتصادى الذى فرضه السلطان سليم عند مبدأ الفتح العثمانى لمصر هو أن يكون السلطان نفسه هو المالك الوحيد لكل الأراضى المصرية . وليس لصاحب الأرض غير حق الانتفاع بها أما ملكية الرقبة أى حق التصرف فى هذه الأرض فهو للسلطان أى للحكومة . غير أن مزاعم السلاطين فى تملكهم رقبة الأرض مالبثت أن تلاشت مع الزمن أمام نفوذ المماليك فكانوا يتصرفون فى الأراضى على نحو مايشاءون ويبسطون أيديهم على مايروق لهم منها حتى صارت معظم أراضى مصر مقسمه بينهم . وآلت إليهم بهذه الطريقة ملكية ثلثى مايزرع من الأراضى . أما الباقى فوزع بين الملتزمين والأوقاف .

ولم يكن للصناعة شأن يذكر فى ذلك الحين . أما التجارة فكانت تحتل مركزا لا بأس به فى الحياة الاقتصادية المصرية نظرا لما يتمتع به مركز مصر الجغرافى من مزايا تجارية عديدة وهذا ما جعل للتجار المصريين أهمية اجتماعية

فى هذه الفترة من تاريخ مصر استطاعوا من خلالها أن يتزعموا أو يوجهوا الحركات الشعبية التى كانت تنتفض بين الحين والحين توقف استبداد المماليك الذين يملكون معظم الثروة المصرية ـ فقد كانت للتجار مصلحة فى وقف هذا الاستبداد الذى كان يؤدى دائماً إلى عرقلة نشاطهم التجارى.

وقد وجدت الحركات الشعبية فى ذلك الحين من جماعة العلماء حليفا قوياً يستطيع التعبير عن حقوقها ورغباتها. فقد كانوا قادة الشعب وزعمائه الروحيين والفكريين وكان أغلبهم من الملاك والأعيان الذين تتأثر مصالحهم تأثراً مباشراً بفوضى الأداة الحكومية واستبداد المماليك الإقطاعيين. وكان لهم من الإلمام بقواعد الشريعة الإسلامية وتعاليم الإسلام ما يمكنهم بل ويوجب عليهم الحد من طغيان الإقطاعيين وقد جعلت هذه العوامل مجتمعة ـ من العلماء الزعماء البارزين فى معظم الحركات الشعبية التى هبت لمقاومة ظلم المماليك ...

ولقد تغيرت طبيعة حركات الكفاح الشعبي بعد أن وصلت الحملة الفرنسية إلى مصر بقيادة نابليون .. فلم يكن الفرنسيون مصريين أو شرقيين ولم يكن بينهم وبين المصريين من الصلات غير صلة الاستغلال والإذلال والمهم أنهم كانو رسل دولة أجنبية يعملون لتوطيد أقدامها واجتلاب المصالح والأسلاب لها ...

إذن فقد كان المصريون على حق فى بغضهم وازدرائهم للحملة الفرنسية مهما قيل من أن حياتهم لم تكن بالحياة السعيدة أو العادية تحت حكم المماليك، وكانوا على حق فى مقاومتهم هذه المقاومة الرائعة التى بدت منهم فى كل مكان وطئته القوات الفرنسية.

ولم تفلح كافة المحاولات التى بذلها نابليون لاجتذاب الشعب المصرى إليه. فلا المنشورات ولا الوعود ولا الديوان ولا غير ذلك من الإدعاءات

أفلحت فى التغرير بعقول المصريين أو تشويه هذه الحقيقة التي وصلوا إليها بفطرتهم السليمة وهى أنهم أمام عدو أجنبي لايجب الاطمئنان إليه وكل مايجب هو مقاومته ومقاومته بشدة وبلا هوادة.

كان هذا الشعور صادقا وسليما وواضحاً لا شك فيه . . . وقد صادف هذا الشعور من الأسس المادية ما جعله يتبلور ويتركز ويعمق فى القلوب والأذهان معاً وما أدى إلى إيجاد قيادة واعية نشطة . .

فقد كان أول ما عمد إليه نابليون عقب استقراره فى العاصمة بأيام معدودة أن أخذ فى فرض الضرائب وتحصيلها بكل ما يمكن أن يجدى من الوسائل ولو وصلت إلى القسوة والعنف .

ولم تقتصر هذه المغارم على الأيام الأولى من الاحتلال بل استمر الفرنسيون فى فرض الضرائب وجمع الأموال ولا سيما بعد أن تحطم أسطولهم فى معركة أبو قير وأصبحت الحملة الفرنسية منقطعة عاجزة عن تلقى الأمداد والمساعدات من فرنسا متروكة لمواردها وموارد البلاد . فأخذ الفرنسيون من ذلك الحين يتفننون فى استخراج الأموال من البلاد ومن أهلها وتذرعوا إلى ذلك بوضع النظام الذى ابتدعوه لإثبات الملكية وتسجيل السندات والعقود وما تبعه من فرض الإتاوات الجديدة .

إذن فقد كانت الضرائب منصبة فى غالبيتها على طبقة التجار وأصحاب الصناعات الحرفية فهى لم تمس إلا من بعيد طبقات الشعب الفقيرة التى لا تملك شيئاً يمكن أن يؤدى عنه ضريبة أو تفرض عليه إتاوة . .

ولكن هذه الطبقات الكادحة كانت تكره بطبيعتها وبداهتها الصادقة هذا التدخل الأجنبى السافر ، وكانت طبقة التجار تشارك بقية طبقات الشعب هذا الشعور الطبيعى الفطرى ولكن هذه العوامل المادية الواقعية

التى مست مصالحها فى الصميم وأقنعتها بأن التدخل الأجنبى لا يمكن أن يقف عند حد طعن الكرامة الوطنية والشعور القوى فى صميمها بل يتعداه إلى حد أن يغدو خطراً يهدد مصالحها وحياتها . . وهكذا كان شعور هذه الطبقة بخطر الاستعمار الأجنبى شعوراً قوياً واضحاً وكان شعورها بضرورة الانتقاض على الوضع شعوراً يستند على أسس معنوية ومادية معاً . .

لذلك نراها تلعب الدور القيادى فى الثورة . . . فهى أول من يهب لتحريك النفوس . . وهى التى تبذل المال رخيصاً فى سبيل الاستمرار بها إلى غايتها . .

* * *

ولكنى نسيت أن أحدثك عن مؤلف هذا الكتاب . . .

وماذا يعنيك من أمر هذا الرجل غير أن تقرأ له فتستمع إلى كلماته تنساب إلى نفسك فتعرف عنه مباشرة كل ما يمكن أن يعرف رجل عن رجل يرافقه بعض النهار وبعض الليل . . يطلق فيه الحديث مرسلا فى غير كلفة أو جمود أو تصنع . . . فيضحك إن أراد الضحك ويسخر إن أراد السخرية ويبكى إن كان فى الحديث ما يدعو إلى بكاء . .

وربما تكون قد قرأت بعض ما نشر من قصصه فى جريدة « المصرى »

وربما تكون قد تتبعت رواية « الأرض » التى تظهر حلقاتها تباعا فى هذه الصحيفة .

وربما تكون قد قرأت بعض ما كتب من فصول وقصص فى « المصور » و « الاثنين » و « قصص للجميع » . .

وربما تكون قد قرأت ما كتب من مقالات فى مجلة « الكاتب »

ولا بد أن تكون قد قرأت قصيدته التى وجهها « من أب مصرى إلى الرئيس ترومان » . .

فأنت إذن تعرف عن « المؤلف » كل ما تريد . .

هل ترى يعنيك أن أقول لك إنه ولد فى قرية الدلاتون بالمنوفية ..؟!

إن أعماله جميعاً تنطق بأنه فلاح عريق فى مصريته . . . وإلا فكيف أمكنه أن يصور هذه العلاقة العميقة التى تربط بين الفلاحين المصريين و « الأرض » . . . وكيف أمكنه أن يضع هذا الحوار « الأصيل » على ألسنة أبطاله الذين يطلب أن يكونوا من الفلاحين . . ! ؟

أم يعنيك أن أقول لك أنه قد ولد فى عام ١٩٢٠ . . ؟ !

لا شك أنك أدركت ذلك من كثير مما كتب . . . . فهو قد خرج إلى الوجود والشعب كله ثائر يريد أن يخرج أيضاً إلى الوجود . . ورأى فى طفولته وشارك فى فتوته كفاح هذا الشعب من أجل الدستور والاستقلال . . ولم يترك فرصة تمر فى كل ما كتب من فصول أو قصص أو قصائد — دون أن يتحدث عن الكفاح من أجل الدستور أو « اللائحة » كما سماها الفلاحون بعض الوقت . . . وعن الكفاح فى سبيل الاستقلال . . . .

أم يعنيك أن أقول لك أنه متزوج وله بنت واحدة . . ؟ !

لا شك أيضاً فى أنك تعرف هذا . . . . بل وتعرف أن ابنته اسمها « عزة » فهو قد ذكر لك هذا كله فى قصيدته التى وجهها إلى الرئيس ترومان وذكر فيها عزة وابنى وابنك وأبناء أصدقائنا . . فهو لا يحب السلام من أجل عزة وحدها . . بل من أجلنا نحن ومن أجل أبنائنا جميعاً . . .

أنت إذن لا تريد أن نعرف عن « المؤلف » شيئاً جديداً . . . لعلك الآن تسألنى . . ومن أنت . . ؟!

لقد جرت العادة أن يقدم أمثال هــذا الكتاب واحد من كبار

الكتاب . . . فيصطنع كثيراً جداً من الحلم والتواضع ويربت على كتف صاحب الكتاب فى حركات مسرحية مكشوفة ثم يقدمه إلى الجمهور . . ! !

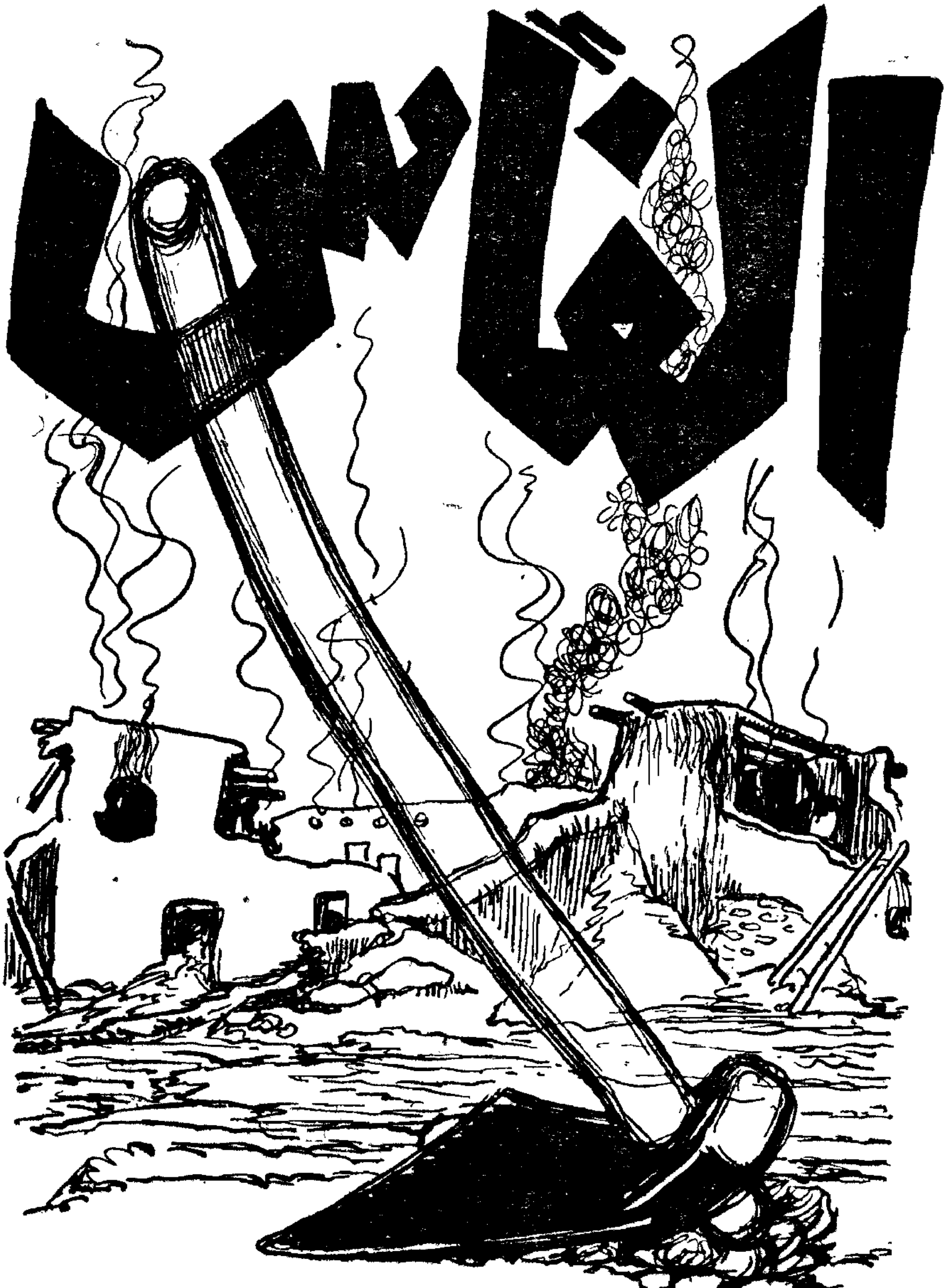
أما هنا . . فواضح جداً أن الذى يقدم الكتاب ومؤلفه ليس أحداً من كبار الكتاب . . بل ولا حتى من صغارهم . . ! !

إننى قارىء يا سيدى . . . مثلك تماماً . . . كل الذى امتزت به أن مؤلف هذا الكتاب — وهو صديق قديم — أطلعنى عليه قبل نشره وطبعه . . فأحببت أن أعلق عليه بكلمة . .

فكانت هذه المقدمة . . ! !

ولأدعك الآن أنت وشأنك فى هذه القصص من كفاحنا الشعبى ؟

سعد لبيب


الفأس

ارتفعت الشمس قليلا فى السماء ، فرفع ظهره ، وانتصب متثائبا،وهو يمسح عرقه بكفه ثم انطلق يغنى ... وبدأ الفلاحون يرددون أغنيته الحزينة رتيبة النغمات.

ولأول مرة منذ الصباح شعر الجميع أن بينهم أشياء مشتركة اودوت فى الفضاء صيحة ، وفرقعة سياط ! .. وقيل : « ممنوع الصياح ! »

فى الحق أن أحداً على الإطلاق لم يكن يستطيع الصياح فى تلك الأيام!

وجمدت الشفاه على مقطع مثير من الأغنية ..

كانت أغنية رائعة من أغانى مصر ! ..

وعادت حدائق البرتقال ترسل من جديد عطرها الذى ينفذ إلى الأعماق من كل نفس ، وماء الكدح الإنسانى ما زال يختلط بالتراب ، والسياط تقرع الهواء وظهور البشر بأقسى مما تمزق الفؤوس وجه الأرض!.. والسيد مازال يكرر «ممنوع الصياح !»

أما هو فقد عاد يغنى ، وعاد الفلاحون يرددون أغنيته الحزينة . . كانت الأغنية هى كل ما يملكون من تعبير.. كانت تتحدث عن مخازن الذرة التى خلت من المحاصيل ، وعن الدور التى لم يعد يصيح فيها الدجاج ، وعن القرية التى أقفرت من الرجال، لأن المحتلين قد أخذوا كل شىء ، وحشدوا كل ما فى مصر من حيوان وطيور وغذاء لحربهم مع الألمان والأتراك ..

الخيول للحرب ، وكل الدواب للحرب، والغلال .. وحتى لقمة العيش أخذوها من أفواه الجياع ، ولم يكتفوا بذلك بل ساقوا الكثيرين منهم إلى الحرب ! ..

والحرب ــ هذا الشيء الوحشى الرهيب ــ لم تكن تعنى مصر فى أى يوم من الأيام ، غير أن مصر فى تلك الأيام لم تكن تستطيع أن تقاوم ما يراد لها.. ونحن عند ما نشعر بالعجز نلجأ إلى الدموع . .

وكان الفلاحون يذرفون هذه الدموع فى أغانيهم ، ومن خلال هذه الدموع تنهمر اللعنات المريرة على المستعمرين ، وتتناوح ذكريات من أبطال الحرية الذين ماتوا وهم يكافحون !..

وعاد الصوت الأجش يصرخ : « يا محمد يا ابن الشيخ عمر أسكت . . قلت لك أسكت .. مالك وما للانجليز ؟ ! »



ولكن «الشيخ عمر» مات فى ثورة « عرابى » بيد انجليزية . . فلمحمد عند الانجليز ثأر .. وكثيرون غير «الشيخ عمر» يموتون بيد الانجليز.. وآلاف من أمثال «محمد» عرفوا الجوع وهم يزرعون للانجليز خير ما يأكلون . . وخلال الحرب الكبرى عرف الجميع حقا ما ذا يعنى بقاء الانجليز .. ومن قبل الحرب علمتهم دنشواى أشياء مازالت تحتدم فى الحنايا حيث يحتدم الألم، والثأر، والندم، وكل رغبات الانتقام ! .

لكل رجل فى مصر شأن بالانجليز، إلا صاحب الصوت الأجش وسيده الذى يملك هذه الأرض بما عليها من حدائق ، وبمن عليها من فلاحين ! ..

إنه هو ، وقليلين غيره ، يبيعون ما تنتج أرض مصر للانجليز، ويملأون خزائنهم بالذهب ، ويلهبون الظهور بعد هذا بالسياط وهم آمنون ! . . أن قوة هائلة تحميهم من غضب هؤلاء المعذبين كما حمت آباءهم من قبل ، عند ما

قاد عرابى ثورة الفلاحين والمنبوذين فى أرض الآباء والأجداد والأحفاد!

ورفع محمد رأسه ، ووضع فأسه على كتفه وهو يقول : « ما لى وما للانجليز ؟ ! . . . اسأل سيدك الباشا » . . . فصاح الرجل : « اخرس ! » . . . ثم رفع سوطه وهوى به على وجه محمد . . !

والتف حول الرجل ثلاثة من الزبانية غلاظ شداد ، وأحاط بمحمد كل رفاقه الفلاحين ، وكانوا مهزوزين شاحبي الوجوه ، الفؤوس فى الأيدى ، والأفواه فاغرة ، و « محمد » يتلقى ضربات متتابعة من أربعة سياط ! . .

ولم يهتز « محمد » . . وكانت السياط التى تهوى على وجهه وجسده تمر متشابكة أمام عينيه ، وتحمل إلى قلبه ما كان يتخيله دائما : أرجل الخيل المتشابكة التى سحق تحتها أبوه ومصريون كثيرون فى معركة التل الكبير!

إن هذا « الباشا » نفسه هو ابن أحد الذين مهدوا لمأساة « التل الكبير » ، والفلاحون يعرفون أنه يحتفظ حول قصره فى المدينة القريبة ببعض الجنود الانجليز الذين يطعمون من كدحهم . . والفلاحون يعرفون أيضا أن هذا الباشا يموت من الرعب إن بعد عنه الإنجليز ! . . فالجميع يكرهونه ويريدون أن يبطشوا به ، ولكنهم يذكرون دائما رصاص أصحاب الوجوه الحمراء ! . . . والسياط تهوى على وجه « محمد » ، وظهره وكل بدنه ، ودمه يسيل تحت الشمس التى أنضجت جلده ، والتى تسطع منذ القدم على التراب المبارك . . .

لو أنه فتك بهؤلاء الأتباع الأربعة ، فسيجلده الباشا ، فلو أنه اعتدى على الباشا لجلده الانجليز ،ولو أنه اعتدى على جندى انجليزى واحد فسيقتل ، وربما جلد أهل القرية جميعاً حتى النساء ، وقتل من رجالها كثيرون ! .

ولكن علام تحرص القرية ؟ ! . . أن الحياة كلها لم تعد تستحق بعض هذا الهوان . . فهى حلقات تعسة من الجوع والمأساة والموت ! . .

وبيد متشنجة تندفع فيها إرادة جيل كامل من المعاناه والحرمان ، رفع محمد فأسه وهوى بها على رأس شيخ الزبانية ، وخر الرجل على الأرض وقد تناثرت خلايا مخه ، وأصبح لدمه على الأرض التى ملأها، طويلا بالصلف ، مثل الأديم المتدوج من أوراق الزهور الحمراء ! وصاح الفلاحون جميعاً : « أضرب يا محمد باسم الله ! » . . . واهتزت الفؤوس فى الهواء وهوت الأيدى المعروقة على رؤوس الزبانية ..وسقط رجلان .. أما الثالث فقد طار ! . . وإذ رآه الفلاحون يجرى وهو يصرخ انطلقت صيحاتهم القوية الساذجة البيضاء ، التى بدأت تندفق منها الحياة !

* * *

وعلى سلم القصر الباذخ وقف «الباشا» يرتعش وهو يصيح : « ياجون أنجدنى ياجون .الكلاب المسعورة ستأكلنى.الفلاحون ياجون قتلوا وكيلى واثنين من أتباعى . إذهب إذهب ياجون . ولكن لاتقتلهم جميعاً . وإلا فمن يعمل فى الحقول . ! أو اقتلهم كلهم وسأجد غيرهم كلاباً آخرين لايكفرون بالنعمة ياجون ! » .

وعندما ذهب «جون» يقود عشرة من الجنود الانجليز على ظهور الخيل، كان الفلاحون فى طريقهم إلى قصر « الباشا » يلوحون بالفؤوس فى الهواء وهم يهتفون . « يحيا العدل ! » وكانت النسوة والاطفال قد خرجوا وراء الرجال والجميع يصرخون : « يسقط الانجليز » .

وبلا كلمة ،أطلق «جون» الرصاص على الفلاحين وهو يسخر وخاض فى الجموع بخيله . . وبدأت الأجساد المهزولة تسقط تحت سنابك الخيل ، والرصاص يخترق الصدور والرؤوس . . وكان الفلاحون يرمون بأبدانهم على الجنود، يضربون بالفؤوس والحجارة ، وينشبون الأظافر فى الرقاب!

وهوى اثنان من الجند .. فثالث . وغنم المصريون ثلاثة بنادق .! ثم رابع ، فخامس . . ثم هوى « جون » نفسه .

وصاح من بقى من الجنود العشرة : «سنهلك جميعاً» . ولوى أحدهم عنان جواده يسابق الريح وتبعه الثلاثة الباقون ، فصاح « محمد » بأهل القرية . « لقد هربوا يا أولاد . فلا تضربوهم من الظهر ، وأطرق الفلاحون فى جلال نبيل ، ولكن منظر الضحايا جعلهم يجرون فى أثر الهاربين .

ولم يعد أحد من الانجليز إلى قصر الباشا ، فقد سقطوا جميعاً على الأرض التى حسبوا أنهم مالكوها ! .

ومضت القرية تشيع موتاها وتبكى على الذكرى ، وفى العيون يشرق أحياناً بريق الانتصار يضرمه زهو المقدرة ! .

* * *

واختلط عطر البرتقال برائحة الدم .

وأرسل «الباشا» إلى « محمد » يسأله عما يريد ، ويعرض عليه أن يعينه عمده للقرية ليعود « محمد » إلى طاعته والاخلاص له ، وتعود القرية كما كانت منحنية الظهر .

وضحك «محمد» طويلا وقال للرسول أنه لا يريد من الباشا شيئاً ، وأن ما يريده لهو أمر لن يفهمه هذا الباشا المسكين ، ولئن فهمه فسيجن من الرعب ، ولئن كانت القرية قد انحنت يوماً ، فإنما فعلت ذلك لتلتقط نفسها الضائعة فى الطين . وهى لن تنحنى بعد .

ومضى الباشا بنفسه إلى القرية يزور قبور الموتى ويتصدق على ذكراهم . ورفضت القرية الصدقات ، وطالبت « الباشا » أن يتخلى عن حرسه

الانجليز، وأن ينذر أصدقاءه وسادته الانجليز ألا يحاولوا مرة أخرى اقتحام أرض القرية التي تضم في احشائها رفات الذين ذهبوا وكان « الباشا » يدرك أن حملة انجليزية قوية لا بد أن تقبل ذات يوم لتأديب القرية ، ولكنه كان يخشى مع أمله هذا أن يذهب هو نفسه ضحية ثورة القرية . .

وكان ما لم يكن منه بد . . فبعد عشرة أيام شهدت القرية حملة انجليزية من مائة جندي ، فتمسكت بالرجال والنساء والأطفال على السواء . . . وبحثت عن « محمد » في كل مكان فلم تجده . . وأقامت بالقرية يوماً وبعض يوم ، ثم تركتها حطام بيوت ، وبقايا رماد من حريق يتمرغ فيه العار! . .

ومرة أخرى أندلعت النار من تحت الرماد كما توقع « الباشا » وكما لم يتوقع الانجليز !

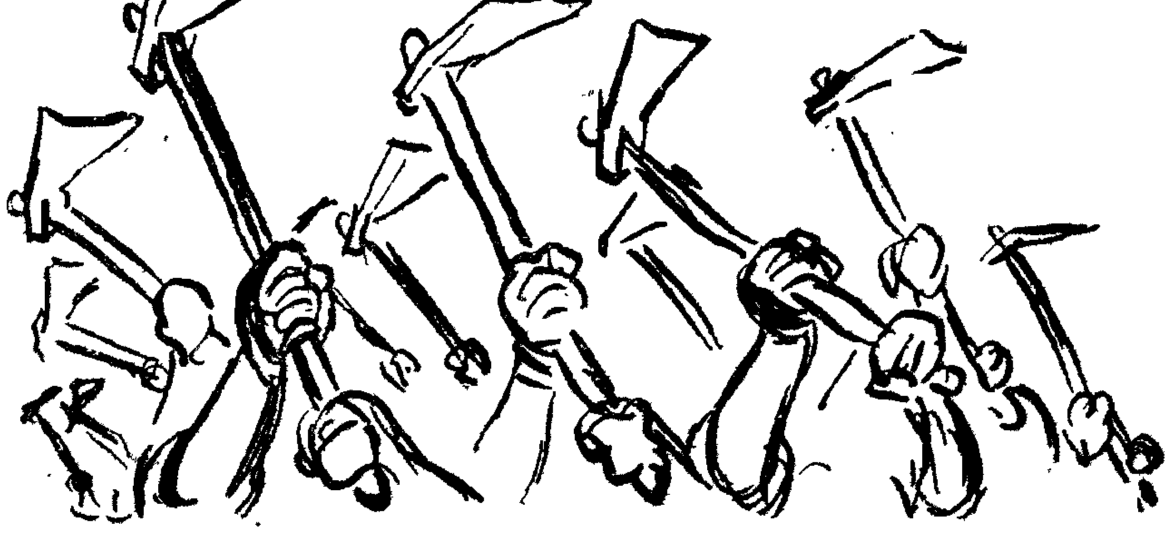
لم تكن القرية وحدها هذه المرة . . . وإنما كانت كل قرية في مصر تردد نفس الهتاف : « يحيا العدل . . يسقط الانجليز ! » . . .

وعاد الجنود يضربون ، ولكنهم على أية حال لم يستطيعوا أن يضربوا إلى النهاية فقد تلقوا كثيراً من الضربات . وأذعنوا آخر الأمر وأعطوا الناس في القرى والمدن بعض ما كانوا يريدون !.

ما زال « محمد ابن الشيخ عمر » يذكر كل هذا الذي حدث منذ أكثر من ثلاثين عاما . . ! وأنه ليجلس اليوم في قريته كل مساء يروي للفلاحين كثيراً من قصص تلك الأيام . . . ثم يرفع عمامته ويحك رأسه البيضاء ويقول لأحد الفلاحين : « أنا كنت في سنك !! » ويضحك الفتى في طيبة وخجل ، ويضطرم وجهه الأصفر بالدم ويقول : « وأنا أقدر ؟ ! » . . ثم يضع «محمد» عمامته . وينظر إلى فتى آخر قائلا : «ياحسن يابن خضرة . . أمك كانت أشجع منك!» . . ويترحم «حسن» على أمه ثم يقول : «يا عم الشيخ محمد . . وأنا ما ذنبي ؟ !» . .

لم تعد السياط تنضج الجلود بعد ، ولكن الظهور ما تزال منحنية تحت الشمس بلا طائل ، وأصحاب الوجوه الحمراء يحتشدون في الصحراء ، ويستعبدون الرجال بالمصالح . . . . وعطر البرتقال يفعم نسمات الأرض العزيزة، و «محمد» ما زال يؤمن بأن الفؤوس يجب أن ترتفع من جديد ..

وفي أعماق كل الفلاحين أمل مبهم وهتاف صارخ : « متى نرفع الفأس . . أيجب أن نرفع الفأس ؟ » .





ـــ اسكتى . . اسكتى . . قلت لك اسكتى ! اسكتى !

ولكن خديجة لم تسكت ، والحق أنها لم تكن تستطيع أن تسكت وفى معدتها صراخ وجفاف ! . وهى بعد لا تعرف ما توجبه ضرورة الحياة على الأحياء فى بعض الأحايين ، وإنما تنطلق بكل سنواتها الثلاث مخلصة لطفولتها ، فتضحك إذا داعبها أحد ، وتبكى عندما يلذعها الجوع ، وتصرخ إن لم تجد ما تحب .

وهى على أية حال لا تستطيع أن تذعن لهذا الأمر الذى ألقى على الناس منذ حين بأن يضحكوا ويفرحوا ويرقصوا ، لأن « عديلة » ابنة « ابراهيم بك الكبير » ستتزوج !

وكانت الأم تعلم جيداً أى شر يمكن أن يدهم الدار من جديد لو سمع أحد الذين يراقبون تنفيذ الأوامر صراخ هذه الطفلة الجائعة . ان أحداً على الاطلاق لا يستطيع أن يدرك ما عانته الأم لتقيم على باب الدار « راية » من الحرير الفاخر دليـــلا على الابتهاج الصادق بزواج الأميرة . . كما حتمت الأوامر !

ولقد تعبت الأم من الطفلة ، فهى ما برحت تبكى وتطلب الطعام وتسأل عن أبيها الذى تعود أن يحمل لها بعض الحلوى وهو عائد من السوق .

غير أن أباها قد مضى إلى حيث لا يعلم أحد ، كما مضى آباء كثيرون غيره . وبعضهم هرب من القاهرة ليستقر فى بلد آخر بعيد ، وبعضهم تخطفه لصوص الصحراء فى الطريق ، وكثيرون ينفقون فى السجن أياما ستطول فى الغالب حتى يضع لهم الموت ختام المأساة التى يسمونها الحياة ! . .

... والطفلة ما زالت تبكى والأم حائرة ، فقد ارتحل معظم الجيران ، ودور كثيرة فى هذا الزقاق من حى « طولون » قد سمرت أبوابها . وفى الزقاق المجاور خطف رجال الشرطة بالأمس فتاة كانت تبكى أباها السجين ويقال أنها قتلت ، ويقال بل ترك الحزن والفقر والذلة لها بقية من حسن تشفع عند رئيس الشرطة ! . .

إن رئيس الشرطة هذا يلقى الرعب فى نفوس النساء والرجال على السواء ، فلشغفه بنساء الشعب قصص مخيفة ، .ومن راقت له من نساء الشعب أهداها إلى مولاه إبراهيم بك . ومولاه يثق فيه ويعتمد عليه فى مثل هذه المهمات ، ولا يكاد يوجد فى القاهرة كلها رجل واحد يطمئن إلى حياته أو عرضه . وكثيراً ما يجد الرجل نفسه مضطراً للاختيار بين واحد من الإثنين : العرض أو العمر ! والنساء يعشن فى جزع دائم خشية بلاء قد يقع فجأة بلا مناسبة مفهومة . وقد أصبح الجمال نقمة تحاول النساء الحرائر إخفاءه خوفا من المصير الرهيب !

وعادت من جديد تحاول أن تسكت الصغيرة عبثا ! .. ووضعت يدها على فمها الصغير فى رفق لتخنق صوتها وهى تغالب الدموع ، إنها هى نفسها لم تذق الطعام منذ يومين ، فقد نفد كل ما فى الدار وهى لا تعرف كيف يمكن أن تحصل على الطعام بعد أن غاب زوجها مع الغائبين .

وليس زوجها غير واحد من مئات كانوا يلفقون عيشهم فى القاهرة حتى أصابتهم ضربة الأمير

* * *

كان الأمير « إبراهيم بك الكبير » يعد العدة لزفاف ابنته عديلة إلى « إبراهيم بك الصغير » . وقد أخذ يشيد للعروسين قصراً فاخراً فى بركة

الفيل ، وأحضر صناعاً من الفرنجة ليعدوا للأميرة مركبة أنيقة مزركشة بالذهب الخالص لتنقلها إلى قصرها الجديد ، وبدأ يشرف على إعداد أثاث من أثمن أنواع الخشب ، وأرسل إلى التجار الهنود يطلب منهم عقوداً من اللؤلؤ الأصيل ، ومئات من التحف المصنوعة من الأحجار الكريمة النادرة ، وأمر بأن تكون ملابس الزفاف من الحرير الموشى بخيوط الذهب ، وأن ترصع بجواهر لم تحملها امرأة من قبل

وكانت هذه هي أحلام الأميرة الصغيرة التي فتنت بالترف والعبث الطويل ، غير أن ما فى خزائن الأرض لم يكن كافياً لمطالب الغانية العابثة !

وفرض إبراهيم بك على القرى ضرائب جديدة . ولم تكن الضرائب القديمة قد أبقت للفلاح شيئا ، ومع ذلك فقد استخلص الأمير من الريف كل ما يمكن استخلاصه من جائع يموت . وما تزال مطالب الأميرة تحتاج إلى مال !

وأخيراً فرض على التجار ضرائب فاحشة ، وكان بعضهم يترنح تحت وطأة الضرائب القديمة ، فأرسل إليه التجار متوسلين أن يعفيهم من هذا البلاء الجديد ، ولتقتصد الأميرة قليلا فيما تريد ، لتكن حبات عقدها اللؤلؤية أقل عدداً ، لتكن عربتها مزركشة بالفضة ، لتكن جواهر ثيابها متواضعة بعض الشيء . .

ولكن الأمير استشاط حنقاً من هذه الجرأة عليه وعلى أحلام ابنته . وأمر رئيس الشرطة أن ينظر فى وقاحة العصاة !

وأنذر رئيس الشرطة كبار التجار ، فدفعوا إيثاراً للعافية . واستطاع بعض صغار ومتوسطى التجار أن يدفعوا ، وبقى بعد ذلك عدد كبير عجز عن الدفع .

وعاد الأمير يهدد العاجزين بأن وقت زفاف « سيدتهم عديلة » قد أزف ، ويجب أن يدفعوا ما طلب منهم وهم صاغرون ! . ، ورد التجار على رسول الأمير بأنهم يقدرون حاجة « عديلة » إلى المال ، ولكنهم — مع احترام حلمها بزفاف يشبه ما ترويه الأساطير — يعانون ضيقاً لم تروه الأساطير أبدا ! . . فبعضهم لا يملكون ما يدفعونه ، ومنهم من لا يكاد يملك قوت غد أو بعد غد ! . .

ولكن الأمير صمم على الإنتقام من هؤلاء العصاة . وتسامع التجار بما يدبر لهم فبادروا بالهرب والنجاة بأنفسهم بعد أن « سمروا » الحوانيت . وقبض مع هذا على كثيرين ، ونهبت الشرطة الحوانيت والدور ، ولم تنس أن تنهب النساء ! وأصبحت القاهرة كلها باكية تهمهم بغضب مكظوم ، فما تكاد تمر فى شارع حتى تنتقل من بكاء إلى بكاء على إيقاع مرير من الصراخ واللعنات

وعلى أية حال فقد حصل الأمير على ما يريد من مال ، وتم تشييد القصر وإعداد العربة وملابس الزفاف ، ولم يبق إلا الاحتفال ، والقاهرة تمتلىء بالزفرات وتنزف منها الجراحات ، وفى الريف يموت الناس بلا حساب !

ونظر الأمير فى الأمر وأعد له تدبيرا

أما أهل الريف فليموتوا كما يشاءون فلن يسمع لهم فى القاهرة نواح !

ولكن هؤلاء الذين يملأون النهار والليل بالحسرات والعويل من « الغورية » إلى « خان الخليلى » إلى « طولون » ! . . إنهم ليحملون شؤما لا نهاية له للأمير الشاب إبراهيم بك الصغير ، ويفسدون على عروسه الغانية بهجة الزواج

واصدر «إبراهيم بك الكبير» أمره للناس أن يفرحوا ويضحكوا على الرغم من كل شيء ، وأن يقيموا الرايات على الدور اعلانا لابتهاجهم . . الصادق !

. . . ولكن «خديجة» لا تضحك أبدا ، وهى لا تكف عن البكاء ، فالجوع أقوى من أفراح الأمير وأحلام الأميرة ، وأقوى من الصدق ، وأقوى من الابتهاج ، وأقوى أيضاً من كل أمر . . !

وعادت الأم تضع يدها على فم الصغيرة لتخفى صراخها ، ولكن بلا طائل

ودق الباب . .

وشددت الأم قبضتها على فم وحيدتها وقد دهمها ذعر هائل

وتعالت الدقات على الباب

وبدأت تضحك لتخفى صوت الطفلة فى ضحكاتها هى ، ضحكت فى خوف وعصبية ويدها تتشنج على فم الطفلة ، وحملت الطفلة وأخفتها وراء ظهرها وهى جالسة معلقة العين بالباب ، وما زالت تضحك وتضحك ويدها تضغط على كل وجه الطفلة !

وتحطم الباب ، وامتلأت الدار برجال الشرطة وقد التمعت تحت مشاعلهم عشرات الخناجر والسيوف ، ومقابض السياط

وفى تلك اللحظة بالذات كانت الصغيرة قد كفت عن البكاء تماما

ونظر رئيس الشرطة فى وجه المرأة التى كانت ما تزال جالسة ويدها خلف ظهرها تضغط على وجه الطفلة وقال :

ــ من هنا يبكى فى ليلة زفاف الأميرة ؟

ــ أبداً أبداً . . أنا أضحك ، نحن نضحك ! والنبى ! . .

وهوى سوط حاد على جسدها فاهتزت من الألم وتقلص وجهها أغمضت عينيها وهى تنتصب واقفة وقد تراجعت إلى الوراء متعثرة بالطفلة الملقاة على الأرض

وهوى سوط آخر عليها فلم تستطع أن تصرخ ، ووضعت وجهها فى يديها المتشنجتين ، واهتز بدنها تحت ثوبها الذى تمزق من فوق كتفيها البارز العظام

وتحت خفق المشاعل لاح صدرها رجراجاً ، طيباً ، فاتن السمرة ! . .

وأشار رئيس الشرطة إلى رجاله أن ينصرفوا ، وفتل شاربه الضخم ، والتمعت عيناه فى وجهه الأحمر المنتفخ ، وتقدم بكل جسده المتكرش الطويل فى خطوات ثابتة منتصرة ، وأخذ ينظر فى صدرها وجسدها . . .

كانت فى الثامنة عشرة ذات وجه عادى لوحه الهزال ، ولكن بدنها ما زال يحتفظ خلال فتنته السمراء بذلك الخصب الذى يتـــدفق فى الأجساد المصرية

ولم يعد أحد فى القاهرة يبكى بصوت مسموع ، وكانت الزغاريد والأنغام تملأ السماء . أما الأرض فقد استطاعت أن تخفى مآسيها إلى حين !

وخرجت الأميرة من قصر أبيها فى عربة غريبة يخطف لونها الأبصار ، والأعلام ترفرف على مشارف القصور ، والبيوت الفقيرة والحوانيت .

وتجمع فى أركان الطرقات بعض الناس يشهدون موكب الأميرة يتقدمه العلماء وكبار التجار والأعيان ، ويروون فى همس حانق قصص فضائح الأميرة

وقال رجل لصاحبه :

هل الدين يرضى عن هذا ؟ انظر . . العلماء يمشون بأقدامهم الطاهرة أمام عربة الـ . . .

اسكت ياشيخ . . أن لك أولاداً صغاراً .

ياعم الرازق هو ربنا .

واختفت همسات الحنق فى وسوسة الحرير والذهب، وغبار الموكب العظيم .

واستقر الموكب فى القصر الجديد حيث مدت الموائد ، ودارت الخمر فى كؤوس الذهب والفضة وانسابت الراقصات الشركسيات، وتناثر الذهب على الأجساد المرمرية التى تتلوى تحت أضواء المشاعل الحمراء ، عارية صارخة الفتنة .

وودعت الأميرة العروس أحد عشاقها العديدين بقبلة خاطفة مختلسة من وراء حجاب ، ولمحها أحد كبار التجار فاستعاذ بالله !

وبرزت للناس فى ثيابها الخاطفة الفاخرة وفى عقد من اللؤلؤ الخالص باهر المنظر . وقال أحد العلماء لصاحبه :

أن الله لا يرضى بحضورنا هنا !

وحاول أن ينهض وهو يقول : « إن حبات هذا العقد ليست غير ذوب دموع شعب جائع » .

ورد عليه صاحبه : « نعم نعم صهرها عذاب طويل وانتظمت عقداً تلهو به غانيـــة فى حفل شياطين . . أنها ليست دموعاً بل دماء ! دماء شعب منكوب » .

وأقبل عليهما إبراهيم بك الكبير وهما يتناجيان فزف اليهما بشرى طيبة كان يدخرها لكبار الملاك ، فسيعفى العلماء منهم خاصة من بعض الضرائب.

وضحك الشيخان ، ولم يتحدثا فى ليلتهما تلك عن دموع الشعب ، أو الشياطين أو الدماء !

وكلما تقدم الليل دارت الخمر بالرؤوس ، وكان الأمراء يغازلون نساء بعضهم أو نساء الأعيان ، والأعيان يغازلون نساء الأمراء . وفى منحنيات حديقة القصر ودورب الحريم السرية كان الرجال والنساء يتسللون، اثنين اثنين!.

وإبراهيم بك الكبير يروح ويغدو يحى الضيوف مترنحاً من السكر ،

ويسأل العلماء ! عن رضا الله ورضا العلماء ! . . وما أكثر ماشبع فى تلك الليلة من الرضا . .

وبينما كانت إحدى نسائه تعود من مغامرة فى الحريم واجهته مع مملوك شاب فى بعض الخلوات ، فصفعته وانصرفت إلى مغامرة جديدة مع شاب آخر ، وانصرف الرجل الكبير إلى تحية الضيوف ، لاسيما العلماء . ليتأكد من رضا الله . .

وحاول أن يغازل إمرأة تاجر كبير ، ولكنها لم تحفل به . فقد كان هناك برغم كل شىء نساء منيعات .. ولم يستطع أن ينال تقديرها . . فصاح يستنجد برئيس الشرطة صاحب الحذق الخاص فى هذه الأمور ليقوم بدوره الخالد .

ولكن رئيس الشرطة لم يمثل بين يدى مولاه ، وانتبه الأمير الكبير فجأة إلى أن رجله قد تخلف عن الاحتفال ، فأمر بعض رجاله فى سخرية وصلف أن يبحثوا عنه عند إحدى النساء المصريات .

وكان رئيس الشرطة فعلا عند « إحدى النساء المصريات » . ولكن جثة تنهش فيها العفونة وسط بركة من الدماء النجسة ، و « إحدى النساء المصريات » مابرحت تطعنه بخنجر صغير فى كل مكان من جسمه ! .

وذهل الجنود مما رأوا . وحاولوا أن يقبضوا على المرأة ، ولكنها كانت تطعن كل من يدنو منها ، وأخيراً ألقتها ضربة سيف على أرض الغرفة . وقد ظلت تضحك حتى فرغت لآخر مرة من الضحك والبكاء .

كان رئيس الشرطة منذ قليل يركل «خديجة» بعيداً عن أمها ، وهو يحاول أن يجذب الأم إلى أحضانه الكريهة ، وركعت الأم لتحمل ابنتها ولكنها وجدتها باردة كاليأس ، شاحبة كالحياة فى تلك الأيام ، فأخذت تحركها وتناديها فى حزن هائل مخيف خانق وإذ ذاك أحست بشارب الرجل يلمس خدها ، وقد التفت يده الثقيلة حول صدرها !

ليس ثمة ما يخيفها الآن كأخريات سقطن خوفاً أو طمعاً ، لا زوج ولا أب ولا ولد يمكن أن تهدد بقتله أو سجنه ، والذهب ، كل ذهب

الأرض لا يغريها ، وإنها لتحتقر من أعماق نفسها أن تكون محظية الأمير نفسه ، وكل ما تعرفه الساعة أنها فقدت زوجها وابنتها ، وإنها قد تفقد حياتها ، ولكنها لن تفقد شرفها أبداً بعد ذلك

وفى لحظة من تلك اللحظات التى تولد فيها الخوارق نزعت خنجر الرجل وانقضت عليه تطعنه بكل عنف النفس الانسانية التى تثأر لآلاف . . . .

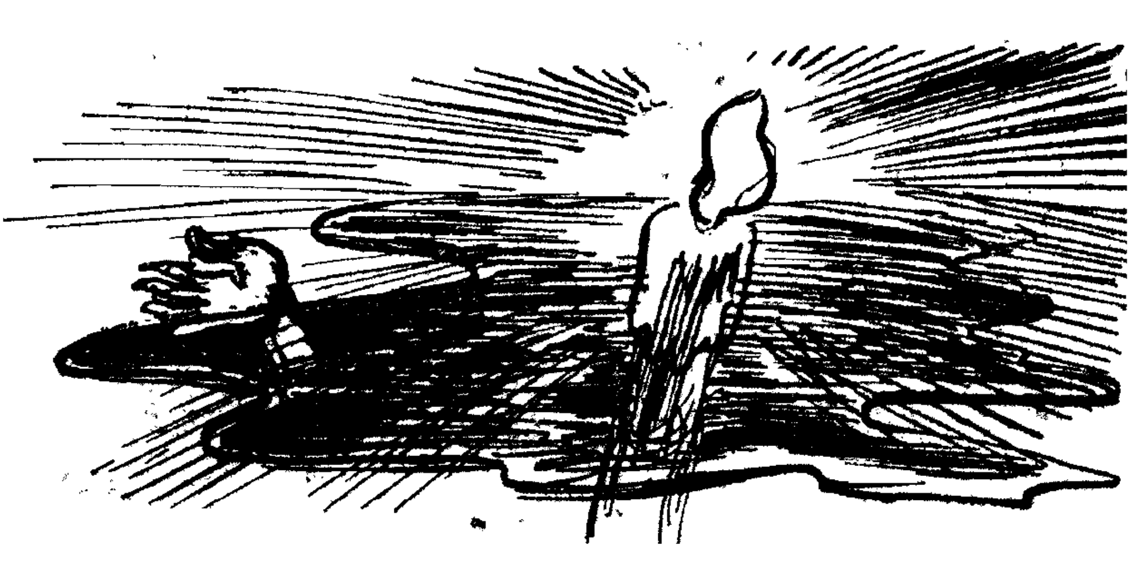
وسقط الرجل يخور فى الدماء كخنزير ، وظلت هى تطعن وتضحك وتطعن ، وكأنما تمارس لأول مرة احساساً بالإنسانية الممتازة التى تستطيع أن تذود عن العرض والمقدسات البشرية ! . . .

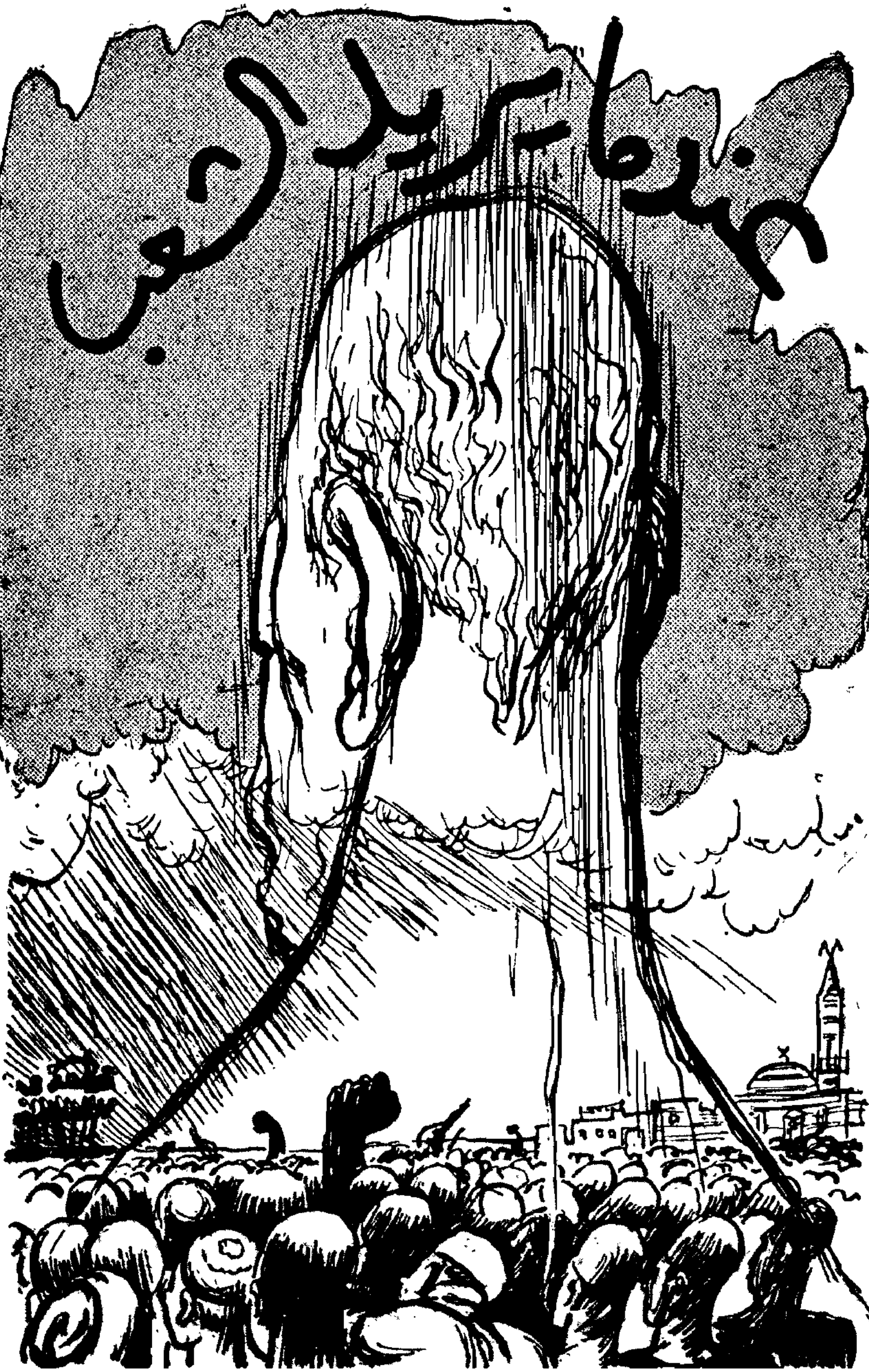
وقال بعضهم أن أم خريجة كانت قد أصبحت مجنونة تماما عندما قتلت رئيس الشرطة الذى ترتعد من ذكر اسمه قلوب أقوى الرجال ! . .

ربما . . . . ولكن نساء كثيرات من بعدها تعودن ، أن يصنعن مثلما صنعت ، واليقين أنهن جميعاً عاقلات ! . .

وعلى أية حال كانت هـــذه الليلة هى آخر عهد الأمراء بالأفراح والسهرات الصاخبة المطمئنة والليالى الملاح ! . .

ولم تكد تمضى أعوام قلائل على هذه الليلة حتى كان العقلاء من الرجال والنساء يصنعون بدولة الأمراء نفس ما صنعته أم خديجة . . . وعادوا جميعاً يضحكون كأعقل ما يضحك العقلاء الضاحكون .




عندما يريد الشعب

أقبلوا مع الفجر : على الوجوه ظلمات الليل المنهزم ، وفى الأعماق منهم يشرق أمل شاحب كشعاع اليوم الجديد . . كان السفر الطويل قد لوحهم وقوس متهم الظهور ، بعد أن عصرت الحادثة قلوبهم الواجفة النبضات .. أما الرجال فقد غرسوا عصيهم فى الأرض واتكأوا عليها ونظراتهم معلقة على باب الشيخ . . . . بينما جلست النسوة القرفصاء يهدهدن الأطفال ، ويشتبكن فى أحاديث تتقطع فجأة لتسقط الدموع مثقلة بالزفرات ! .

إن « الشيخ محمود » الذى عاش ستين عاماً مرفوع الرأس لا يعرف الآن أين يضع وجهه فقد خطفت ابنته .. وهو لا يكاد ينظر إلى باب «الشيخ الكبير» حتى يرد بصره فى الجموع المنتظرة فيدهمه الألم والخجل من جديد ويغلق عينيه على حسرات !

و « زينب » لا تستطيع أن تمسك دموعها ، وهى تجلس بين النساء منكسة الرأس بلا كلمة وكأنما فقدت صوتها تماماً . إنها لتنسى كل ما عرفته أعوامها الستة عشر من محن .. تنسى الجوع والعذاب والموت نفسه ولكنها لن تنسى أبداً تلك الليلة الهائلة ! .

كان الليل يلقى ظلاله الرهيبة على آماد لا نهاية لها من الأرض الطيبة الخضراء التى لم تعد طيبة ولا خضراء . . وكانت القرية النائمة فى أحضان الظلال المرتعدة تسمع من بعيد عواء الذئاب الجائعة ، فيغوص الأطفال فى أحضان أمهاتهم ويلتصقون بها ، ومن بيت الحاكم دوت قرعات السياط مختلطة بمواجع الرجال ... وتقلبت «زينب» فى فراشها الخشن وتحسست كيانها الرقيق الأعجف . . . ودهمها خوف مبهم ، وفجأة وجدت عدة

رجال يمسكون بها . انتزع أحدهم قرطها الأصفر فأدمى أذنيها . وبادرت بإعطائهم كل حليها الزائفة التى بدت لهم كالذهب . . فقد سمعت العذراء الصغيرة من الذين يكبرونها أنهم عند ما يقبلون ينتزعون كل شيء . . . منحتهم كل شيء لعلهم يذهبون . . . ولكنهم لم يذهبوا . . . فقد بقى فى العذراء شيء ينتزع ! . .

وعند ما أفاقت تمنت لو أنهم نزعوا حياتها وانتهى الأمر ! وخرجت تولول وتعثرت بأمها الكهلة الحسناء وأبيها وأخويها .. كانوا فى صحن الدار راقدين فى سكون مخيف جامد ولا حركة فيهم على الاطلاق غير دماء تتدفق بلا حساب . ولم تجد فى الدار شيئاً آخر ... سكت الدجاج واختفى الأوز حتى البقرة . . ولا حياة !

وعائشة كزينب ، وزينب كخديجة ، وأم السعد كالأخريات ، وللشيخ علوان ، نفس فاجعة الشيخ محمود ، وحسنين كعمر ، وعمر كأحمد ، وأحمد كالآخرين . . . قصص كثيرة متشابهة عن المال المغتصب والشرف المهدر والزراية ، والهوان ، والعار ، وكل ما يفجر من أعماق النفس بكاء تغص به الصدور ولا تتنفس به الدموع !

إنها لعنة صبها قدر غاشم على تلك القرية من مديرية الشرقية ، فتسلط عليها أتباع « الألفى بك » . . . هبطوا إلى قصر حاكم القرية ذات مساء يطلبون المال لسيدهم .

وفى الحق أن « الألفى بك » كان يعانى حاجة ملحة إلى المال ، وقد كاد الضيق يذهب بعقله . ذلك أنه اشترى حديثاً مجموعة كبيرة من المماليك الصغار ، واشترى معهم خمس فتيات من الشركسيات الباهرات الفتنة ولقد أغدق عليهن الثياب والجواهر وأعطى لكل واحدة منهن قصراً وبقيت منهن واحدة بلا قصر : ولقد بدأ حبها يغزو قلبه وأخذت هى

بدورها تتدلل عليه . إنه يريد أن يحتفل بإحدى ليالى العمر مع هذه الجارية المتمنعة فى قصر جديد تحلى جدرانه الرسوم المذهبة ، وتنبثق من نافوراته المرمرية مياه النيل المصفاة .

لابد من مال. هكذا أراد الأمير. ولا يسأل الأمراء عما يفعلون وكذلك أتباعهم لايسألون .

ومضى الأتباع يجبون من القرية مافرضها عليها الأمير . ولم يكن فى القرية رجل واحد يستطيع أن يدفع درهما فائضاً وقد عرفت القرية من قبل كيف يموت الانسان من الجوع .

وعبثا حاول حاكم القرية أن يشرح لأتباع الأمير . فقد جمعوا الرجال فى ساحة القصر وانهالوا عليهم بالسياط وطافوا بدور القرية يقتلون من تخلف فيها من الرجال ويخطفون ويغتصبون كل مايعثرون به : أدوات نحاسية طيور ، ومواش ، وحلى ، وملابس .. والعذارى الصغار ، ومن راق لهم من النساء !

ومضوا عن القرية بأسلابهم يتضاحكون .

ولم تكد القرية تستقبل الصباح بعد تلك الليلة المشئومة حتى شيعت ضحاياها فى إذعان، وبدت القرية كلها — كأخوات لها من قبل — خجلى، مطأطئة الرأس ، مشبعة بروائح الذل والهزيمة والدماء .

وصاحت امرأة عجوز : « لماذا لانشتكى لسيدنا الشيخ ؟ » .

وردت عجوز أخرى : « وهل اشتكى غيرنا ؟ » .

وقاطعها رجل يتحسس ظهره : « اسكتى ياشيخة » .

وقال الشيخ محمود : « تعالوا نسافر ... » .

والتهبت الفكرة فى الرؤوس وانتفض الجميع وقد تبين كل واحد منهم

لجاة أنه فكر فى هذا السفر ولكنه خافت بالفكر ضميره !

ومضوا جميعاً إلى القاهرة ليعرضوا الأمر على «الشيخ عبدالله الشرقاوى» فهو يملك من أرض القرية حصة كبيرة ، ويلبغى له أن يرى رأيه فى عدوان « الألفى بك » على أرضه ، وعلى أهل قريته . .

وقرعوا باب « الشيخ » وانتظروا . . وبعد حين خرج اليهم مروعا فسمع منهم وأفاضوا له . ولم يستطع « الشيخ » أن ينتظر حتى يسمع قصص الفظائع ، قصة بعد قصة فقد امتلأ حنقاً وغيظاً أن « الألفى بك » يهدر حقوق المالكين ويستخف بشأن العلماء ويمشى هو وأتباعه بالبغى بين عباد الله الآمنين . يجب أن ينتهى الأمراء من هذه السيرة بين الناس . يجب أن يعرفوا أن هناك حقوقاً وحدوداً ونفوساً بشرية جديرة بالاحترام .

وهكذا مضى الشيخ مغضباً لا يكاد من فرط غضبه يرى أحداً . . . وطرق باب « مراد بك » فروى له كل ما حدث ، وسأله إن كان هذا يرضيه ؟ وخرج « مراد بك » بصمته عن لا ونعم . . . . فطالبه الشيخ أن يعطيه موثقاً من الله عن نفسه وعن بقية الأمراء ألا يمشوا فى الأرض بعد اليوم مفسدين ، وأن يكفوا عن فرض الضرائب . وهنا خرج « مراد بك » عن صمته وقال : « لا ! » . . قالها عريضة متغطرسة آمرة ، ونهض مربد الوجه ، فانصرف الشيخ . .

وذهب إلى « إبراهيم بك » لعله أن يشفى حاجات فى الصدر . . . غير أن « إبراهيم بك » كان فى شغل عن الشيخ ومظلمته بمجلس شراب مع جواريه وغلمانه . فقال :

ـــ هون عليك يا شيخ عبد الله فاليوم خمر وغداً خمر ومن بعد غد ! . . .

* * *

عاد « الشيخ » إلى بيته ذاهب الصبر ، قليل الحياة بعد أن أنفق يوما كاملا يجادل بلا طائل أميراً متعجرفا وآخر ضعيفاً ، وكان الذين أقبلوا من الريف لائذين به ما زالوا ينتظرون عودته فى ساحة بيته وقد أطعموا وأخذوا قسطاً من راحة فى ظلال الأشجار .. وقال سائلهم : « ماذا فعلت لنا يا سيدنا الشيخ ؟ » وقص عليهم الشيخ ما لقيه من يومه هذا فصرخ أحد الفتيان : « إذن نضربهم ! » . وتعالت الصيحات حتى من الأطفال والنساء : « نعم نضربهم . . نحن أقوى منهم ... نحن اكثر .. معنا أهل الله فى القاهرة .. معنا الله .. الله معنا» .. فأشار عليهم الشيخ أن يهدأوا ، فغداً أمر ومن بعد غد !

ولم تكد شمس الغد تشرق حتى كانت القاهرة تشهد عجباً . . سار الشيخ على رأس موكب ضخم من الفلاحين إلى الأزهر . وانضم إليهم أهل القاهرة وهم يهتفون بسقوط الظالمين . وفى الأزهر اجتمع العلماء وأغلقوا عليهم أبواب الجامع وتشاوروا طويلا . ثم أصدروا أمرهم إلى الناس أن يغلقوا الأسواق والحوانيت ، وأن يمتنعوا عن أعمالهم وأن يكفوا عن معاملة الأمراء وأتباعهم . ومضى موكب العلماء إلى بيت « الشيخ السادات » ومن ورائهم ألوف من أهل القاهرة والريف ، فى قلب كل منهم أمل كبير أن يزول الكرب الذى يخيم على مصر ، وقد سرت طبيعة جديدة فى هذه الجموع التى أذعنت طويلا. ولعل هذه الطبيعة الجديدة التى دبت فى الجموع بمثل طبيعة المد فى الموج الزاحف ، لعلها هى التى سيطرت على العلماء الزعماء فعلموا الأمراء لأول مرة كيف يخضعون . ذلك أن مجلس العلماء لم يكد ينعقد فى شرفة «بيت السادات» حتى تموجت الساحة بالخناجر والسيوف والفؤوس والسكاكين ، تلوح بها أيدى آلاف من الظامئين إلى

الأمن والحرية . وروع « ابراهيم بك » بالزئير المتصاعد وبمنظر هذه الأيدى الملوحة المتوعدة . كان فى منزله المقابل لمنزل « السادات » يرقب من الشرفة هذا التدبير المخيف عبر « بركة الفيل » فأحس أن كل هذا لا يمكن أن يهمل أو يستخف به ، ولئن أهمل فربما ضاعت دولة المماليك إلى آخر الزمان . لقد كان هذا الجمع يبدو له مستعداً لكل شيء . إنهم هناك خارج منزل « السادات » يصرخون طالبين رؤوس المجرمين . أى شيء يحرصون عليه ؟ إنهم مستعدون للقتال حتى الموت .

وترنح « ابراهيم بك » تحت ضغط هذه الأفكار ثم أسرع فأرسل إليهم « أيوب بك الدفتردار » ، وهو رجل ماكر الحديث ، واسع الحيلة . وأوشك الناس أن يفتكوا بأيوب بك ، غير أن العلماء طلبوا من الناس أن يتركوا رسول ابراهيم بك يدخل بسلام .

ووقف « أيوب بك » والعلماء جالسون . واحتمل هو هذا الموقف الذى لم يشهده من قبل ، ولم يكن غيره يستطيع أن يحتمله . فلو أن مثل هذا حدث فى يوم سابق لكان خاتمة تعسة لحياة إنسانية ! . وبعد أن جمع أيوب بك أعصابه ألقى السلام على العلماء فردوا عليه السلام . وسألهم عما يريدون . فقال الشيخ السادات : « نريد العدل ، ورفع الظلم والجور ، وإقامة الشرع . وإبطال الحوادث والمكوس التى ابتدعتموها وأحدثتموها » .

فقال أيوب بك وكان مايزال واقفاً : « لايمكن إجابة هذا كله فاننا إن فعلنا ذلك ضاقت علينا المعايش والنفقات » . فقال له أحد الشيوخ : « إن هذا ليس بعذر عندالله ولا عندالناس » . وأضاف آخر متعجباً : « ما الباعث على الإكثار من النفقات وشراء المماليك ؟ » . ثم قال له واحد منهم : « الأمير لايكون أميراً بالأخذ من الناس بل إعطاء الناس » .

وشعر « أيوب بك » بأن ملكاته لاتسعفه فليس لديه الآن مايقول . وطلب منهم أن يأذنوا له بالانصراف ليبلغ الأمراء بما دار ، ثم يعود بالرد .

وانصرف . ولم يعد . وأخذ الشفق الأحمر يصبغ الأفق ولاحت « بركة الفيل » كأنما هى بركة من الدماء . شاهد إبراهيم بك بعد لحظات موكب العلماء يتحرك على أمواج بشرية تهدر . واستقر الموكب فى الجامع الأزهر، وهناك قضى العلماء والناس ليلتهم : وأدرك « ابراهيم بك » أن العاصفة تتجمع لتنقض بالصواعق على الأمراء، فأرسل إلى العلماء يتملقهم ويبلغهم أنه يؤيدهم ويعلن استنكاره للمظالم التى وقعت ، ويرجو أن يعتبره الشعب الثائر واحداً من الثائرين .

وأرسل فى نفس الوقت إلى « مراد بك » يشرح له الخطر ، ويطلب منه أن ينزل من عليائه فقد ثار الذين تحت التراب ! فقد جاء دور الذين يقرعون بالسياط لينتقموا لأعراضهم وأموالهم وضحاياهم . وأنهم ليستطيعون اليوم أن يصنعوا المعجزة ! . إنهم التجار وأصحاب الحرف والصنائع ومعهم رجال الشارع والفلاحون .

وذعر « مراد بك » من هذا النذير . وعند الذعر يسقط القناع لجأة ليبدو الإنسان الذى يملأ الأرض صلفا وضجيجاً وزحاماً ، كائنا آخر هلوعاً يستجدى ! فقد سارع « مراد بك » فبعث إلى العلماء يسألهم الرضا واختار منهم أربعة عينهم بأسمائهم والتمس منهم أن يتفضلوا فيقابلوه بقصره فى الجيزة .

واستقبل العلماء الأربعة بترحاب بالغ وأولم لهم وليمة فاخرة وظل يلاطفهم إلى ساعة متأخرة من الليل ، ثم رجاهم أن يسعوا فى الصلح بينه

وبين الشعب ، وأنه ليعد برفع المظالم عن الناس على أن يتنازل العلماء عن جزء من رواتبهم المتأخرة .

وفى الصباح كان الوالى التركى فى منزل «ابراهيم بك» لقد ترك « الباشا » قصره فى القلعة بعد ماروعته الأنباء . ودعا الأمراء إلى اجتماع عاجل . إنه يريد أن يحتفظ بمصر لتركيا ، وليحكمها أمراء المماليك كما يشاءون على ألا يبلغ ظلمهم للناس إلى الحد الذى يهدد بالانتقاض عليهم وضياع الأمر من يدهم ، وبالتالى ضياع مايؤدون إلى تركيا من جزية . وبعد أن حضر جميع الأمراء أرسل «الباشا» فى طلب العلماء.فاختاروا خمسة منهم، وحاول الناس أن يمضوا وراءهم إلى مكان الاجتماع ، ولكن العلماء آثروا أن يذهبوا منفردين فطلبوا إلى الناس أن يتفرقوا . ولكنهم عادوا فأحاطوا بالقصر ينتظرون .

وأخذ « الباشا » والأمراء يجادلون « الشيخ السادات » و « السيد النقيب » و « الشيخ الشرقاوى » و «الشيخ البكرى » و « الشيخ الأمير » وطال الجدال ، وسمع الأمراء كلاما لم يسمعوه من قبل . كان العلماء يعددون لهم مظالمهم والجماهير خارج القصر تتوعد الظالمين !

ولأول مرة فى تاريخ مصر الحديث كتب دستور ، فقد تم الصلح وكتب القاضى «حجة» وقعها الأمراء . . وهذه الحجة هى فى الحق دستور للحكم . . وجاء فى «الحجة» أن الأمراء «تابوا ورجعوا والتزموا بما شرطه العلماء» . وتعهد الأمراء بدفع سبعمائة وخمسين كيساً من النقود كتعويض لمنكوبى عدوانهم ، على أن يصرفوا الغلال « وأموال الرزق » وعلى أن يرفعوا المظالم ويلغوا الضرائب المستحدثة ، و « أن يكفوا أتباعهم عن امتداد أيديهم إلى أموال الناس وأن يسيروا فى الناس سيرة حسنة »

وعلى هذه « الحجة » وقع الباشا . . وبتوقيع الأمراء ، وبتوقيع الوالى أصبحت « الحجة » دستوراً ملزماً . .

وخرج العلماء من الاجتماع فتلقاهم الناس مستبشرين وقد علموا بكل ما حدث ، ومضى كل شيخ وحوله كتلة ضخمة من أهل القاهرة والريف وقد رفعوا رؤوسهم الآن وسرت فى الوجوه إشراقة النصر والأمل ، وظلوا ينادون : « جميع المظالم والحوادث والمكوس بطالة من مملكة الديار المصرية » . . !

وفتحت الأسواق . . وعاد الناس إلى أعمالهم فرحين ! !





لم يكن يعرف ما يصنع بشبابه ، ولا بكل حياته . . ! إنه ينفق أياماً باهرة من الفتوة والبطالة والغزل ، ولكنه مع ذلك يشعر دائماً إنه وحيد بلا أصدقاء . . وفى بعض الأحايين يلح عليه إحساس مرهق بالتعاسة . .

لا صديق ! . . . والمودات التى تملأ حياته يشتريها بذهبه ، ويمسكها عليه طمع الذين حوله ، أو خوفهم . . لكم ترهقه ثروته الفاحشة ، وإن كان دائماً يطلب المزيد . . .

وفى الحق أن أيامه كانت عجيبة على الدوام . . فمنذ عشرين عاماً كان يحيا فى هذا القصر طفلا جميلا فى العاشرة بين رجال فاسدين . . وكان يجد فوق كفايته من الطعام والراحة والمتاع . . . وكانت الدنيا إذ ذاك تقوم ولا تقعد أبداً حين يبطىء النوم عن عينيه قليلا ، أو حين لا تهجم به شهيته السمحة على ألوان الطعام جميعاً !

لم يجد فى أى يوم رجلا أو امرأة يقول له « لا تفعل هذا » أو « إفعل ذاك » . . . ولم يتعود أن يفكر فى شىء على الإطلاق ، فكل شىء ميسر له . . . . ولقد أصبح الآن فتى طويلا عريضاً ضخماً متكرش البطن والأصداغ والعواطف . . . وهو بعد لا يقوى على التفكير ، لطول ما استغنى عن التفكير ! . .

ولكنه الليلة يفكر ! . . إنه على الأقل يستطيع أن يدرك أنه يعانى إحساساً ممضاً بالسأم والفراغ . . . ماذا يصنع فى هـــذه الساعات من الليل ؟ ! . . أيوقد الشموع ويستدعى أحد ظرفاء القصر ؟ . . إنه فى كل ليلة يصنع نفس الأشياء ، وما برح الندامى والحظيات يقولون نفس الكلمات

المضحكة التي شرعت تفقد مقدرتها على الإضحاك !

وتقلب في فراشه المخملي الوثير وهو يتأمل — في بلاهة جوفاء — أعمدته الذهبية . . . وزفر أنفاس الضيق ، وعاد يتقلب في فراشه من جديد ! . . .

وسمعت إحدى المحظيات حركة مولاها ، فخشيت أن يكون هو الأرق الذي يفسد لياليه منذ حين ، وأسرعت إليه . كانت أجملهن ، وكان زوجها هو الآخر أكبر الأتباع !

ونظر إليها الفتى بملل ، وهي تحاول أن تعيد ترتيب الوسائد تحت رأسه . . . وتبرم ، ثم قال في صوت خافت : « إذهبي » وحاولت أن تلاطفه فصرخ فيها بخشونة مباغتة كثور فقد أعصابه : « قلت لك إذهبي .. إذهبي إلى زوجتي . . إلى زوجك . . إلى الجن الأحمر . . إلى أي شيء .. إذهبي والسلام ! »

وكانت تعلم أنها لو توقفت لحظة بعد فربما قتلها . . . وأسرعت إلى زوجها لتروي له عن أرق مولاها . . وفي الطريق إلى حجرة الزوج قابلت أحد أصدقائه ، فنسيت أرق مولاها ، ونسيت الزوج أيضاً . . !

والفتى السعيد يتقلب في فراشه . .

إن خيالات كثيرة تتراءى أمامه في الغرفة الهامدة الظلال . . أشباح تماوج في طوفان من الدم والدخان . . صرخات مختنقة في صور عذارى صغيرات هوين أمامه من الرعب . . عشرات من الأيدي المعروقة ترتعش في الظلام محدقة بعنقه تريد أن تلقيه في أمواج من اللهب ! . .

وصرخ صرخة مفزعة رجت جنبات القصر ، فامتلأت الحجرة الفسيحة بالمشاعل والعبيد والمحظيات وكبار الرجال والجنود . . وتسابقت النساء — أمام أزواجهن — يمسكن بيديه وجبهته ولكنه انتفض واقفاً

فى فراشه وهو يرتعد ، وأمرهم أن يرفعوا الستائر عن النوافذ ليدخل الهواء . . . وتسلل إلى الغرفة المروعة شعاع الفجر الهادىء الذى كان قد بدأ يغمر القاهرة فى تلك الليلة من سنة ١٧٩٠ . . وامتدت « الحسينية » من وراء النافذة بدورها وحوانيتها ومسجدها وطيبتها ، وقبابها التى ترتفع فى إصرار ، وبدا له الحى آمنا لا يزعجه عن نومه شيء . . . وزلزله هذا الصمت الرهيب الذى يجلل دور الضحايا فصرخ :

— إنهم يتآمرون على هناك . . . اقبضوا عليهم جميعاً . . . على كل رجل فى الحسينية . . . خربوا بيوتهم . . . اقتلوهم قبل أن يقتلونى . . . سيثأرون لقتلاهم ونسائهم . . أسرعوا . . أسرعوا . . اقبضوا على شيخ المساجد . . إنه مخيف ! . . الشيخ أولا !

وكان دعاء الفجر قد جمع الرجال والفتيان فى المساجد ، ولم يعد فى الدور غير النساء والأطفال . . ولم تكد الصلاة تنتهى حتى جلس شيخ المسجد على منصة يشرح للناس أمور الدين .

وجلسوا فى خشوع حول الشيخ ، بينما انطلقت من أعماقهم عبر المسجد أفكار كثيرة تبحث فى قلق عن خفايا المصير .

أو رجالا منهم يحملون فى القلوب جراحات ماتزال تدمى وتدمى . وهم لايستطيعون أن ينصتوا لحديث فى أمور الدين ، فان للفجائع التى عانوها لدويا هائلا يصم الآذان عن كل صوت ، ويحجب عن العيون كل نور :

هذا رجل نهب حانوته منذ أسبوع ، لأنه لم يكن يملك الحلوى «الشمبية» التى طلبتها إحدى المحظيات فى ساعة متأخرة من الليل . وهذا الآخر غابت ابنته يوماً فى القصر ، وعندما عادت لم تكد ترفع رأسها تحت أثقال العار حتى سقطت ميتة . وهذا العجوز الحزين فى أقصى المسجد فقد إبنا فى الثلاثين عاد إلى بيته بعد صلاة العشاء فسمع زوجته تستغيث من مخدعها .

ولم يكد يمضي إليها حتى فوجىء بطعنة فى الظهر من رجل مختبىء خلف ستار ، والجميع يعرفون من هو القاتل ومن هو الرجل الذى اقتحم المخدع وهذا التاجر الوقور مازال يلعن اليوم الذى افتتح فيه متجرا لعمائم الشيوخ فقد شاء سيد القصر قبيل فجر ليلة من الربيع أن يرى إحدى راقصاته تلبس عمامة شيخ وهى ترقص عارية فأرسل أتباعه إلى حانوت العمائم المغلق فحطموه وجلبوا كل ما فيه ! . . . وذاك الفتى الكسيف : إنه يخفي سر أخت قتلها !

وانطلق شيخ المسجد يشرح للناس أمور الدين فى صوت حزين خاشع تشيع فى نبراته مرارة مبهمة ولكن أحدهم قاطعه : « قل لنا يا سيدنا الشيخ .. ما رأيك فيما يجرى ؟ » فأطرق الشيخ قليلا ثم أجاب فى صوته الجليل وهو يهز رأسه وكل بدنه : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » . . فصاح أحد الفتيان فى بأس : «دمرناها تدميرا؟ ؟ . . وما ذنبنا نحن يا سيدنا الشيخ؟ ؟ » . وصاح فتى آخر : « أحمد أغا يدمرنا تدميرا .. والله أيضاً ؟! » واشتعلت قلوب الفتيان بسخط عنيد ، ورفض لكل شىء . . .

وتهدج من أقصى المسجد صوت عجوز : « قل لنا ما العمل مع الوالى أحمد أغا وأتباعه يا سيدنا الشيخ ؟ » .. وترددت أصوات من هنا وهناك : « ما العمل يا سيدنا الشيخ » ؟ « ماذا نعمل ؟ ! . . »

وطوى الشيخ كتاب الدين . وانفجر يلعن المصلين جميعا بلا استثناء .. وانفجرت من أعماقه مرارة منحت صوته الجليل حرارة لاذعة . .

ــ يا عباد الله . . . أنتم وحدكم المسئولون عما يجرى . ما العمل ؟

ألا تعرفون ما العمل؟ إن الوالى أحمد أغا يعاملكم كالأغنام . وهو معذور أننا لانسأل الذئب لماذا كان ذئباً ، ولكننا نقاومه ونحطمه ! أتفهمون ؟ لقد أطمع ضعفكم أحمد أغا على عصيان الله والفتك بكم . كان أول الأمر يخرج للناس فى الصلوات ، ولكنه اليوم يقضى كل وقته فى المعصية. لقد بدأ بتاجر منكم فسجنه لأنه رفض أن يهب شالا من الحرير لإحدى المحظيات . وسكت التاجر وسكتم جميعاً فتقدم أحمد خطوة إلى الإمام ونهب حانوت رجل صغير . وسكت الكبار . فأخذ ينهب الكبار . ينهب كل شيء : المال ، والحرية ، والعرض . وانطلق أتباعه يصنعون مثله . وأصبح يقرب الرجال منه بقدر ما لنسائهم من حظوة . وهكذا أصبحوا كباراً يتحكمون لمجرد أنهم أزواج نساء جميلات متسامحات . ولا شيء بعد !! . فماذا صنعتم أمام هذا الفساد يا أهل الحسينية ؟ سكتم . ففسق الذين يسمنون فى الوحل بنسائكم ، ونهبوا أموالكم ، وأهدروا حرياتكم . وأصبح الصغير منكم أو الكبير لايعرف أيعود إلى بيته أم يقبض عليه فى بعض الطريق؟ ولا يعرف أيجد بيته مازال قائماً ، أم يجده حطاماً وأشلاء . وأنتم وحدكم الملومون . فإنكم لتعصون الله ! ! ألم يأمر الله عباده أن يدافعوا عن أموالهم وأعراضهم وحرياتهم ، فمن مات منهم دون هذا فهو شهيد ؟ لقد حرصتم على الحياة وأية حياة . علام تحرص يا حسن ؟ وأنت يا معلم عبد الله ؟ أتحرص على الهوان ؟ وأنت ياعبد الموجود : علام تحرص فى حياتك يازنديق ؟ على الجوع ؟ وأنت ياشعبان ؟ وأنت ؟ وأنت ؟ وأنت ؟ وأنتم جميعاً : علام تحرصون؟ ذوقوا إذن وأنتم صاغرون . كلكم ساخط على نفسه ، وكلكم ينتظر رجلا يبدأ الضربة فكلكم ذلك الرجل » .

ولم يكد الشيخ ينتهى من حديثه حتى سعل ونهض من مجلسه إلى باب

المسجد وهو يجفف عرقه ودموعه . وتصايح الناس : « أفادكم الله ياسيدنا الشيخ » . « سنعزلك يا أحمد أغا » . « سنحطمك » . الله يرحمك يا أحمد أغا »

خرج كل واحد منهم إلى حانوته أو داره وفى الأعماق منه عملاق جبار يستطيع أن يخوض النار نفسها وهو يضحك .

وبعد قليل كانوا فى الطريق إلى بيت الشيخ ليبدأوا معه الجهاد الكبير، فوجدوا رجال الشرطة الذين عاثوا فى الحى فساداً يحاصرون البيت وقد اقتحم بعضهم الأبواب ليقبض على الشيخ .

وقذف الناس العزل بأجسادهم وأيديهم على سيوف رجال الشرطة ودارت المعركة حامية الوطيس خسرت فيها الشرطة خمسة من رجالها وهرب الباقون بينما امتلأ الميدان أمام باب الشيخ بأجساد الضحايا .

وأطرقت « الحسينيـــة » قليلا تبكى ضحاياها ، ثم اندفعت من خلال الدموع والزئير . إلى الأزهر . وانضم الناس من بقية الأحياء إلى جموع الثائرين ، وأغلقت الدور والحوانيت . وخرجت النساء وراء الموكب يحملن قطع الأحجار والحديد والنحاس، ويزودن الرجال بالعصى والخناجر والسكاكين ، وامتلأت القاهرة كلها بالنذير والوعيد . وأسرع العلماء فاجتمعوا بالناس .

وفى الأزهر قرر المجتمعون أن يعزلوا « الوالى أحمد أغا » . ومضى أحد علماء الأزهر إلى إسماعيل بك يبلغه القرار . و « إسماعيل بك » إذ ذاك هو الحاكم الأعلى الذى يعين الولاة على الأحياء والأقاليم . فرفض

«إسماعيل بك» أن يعزل أكبر أعوانه «أحمد أغا» إلا إذا عزل «الجداوى بك» شريكه فى حكم مصر — أكبر أتباعه أيضاً .

وتشاورت « القاهرة » ثم قررت أن تعزل الولاة جميعاً فكلهم يسيرون فى الأحياء سيرة أحمد أغا فى « الحسينية » . غير أن « الجداوى بك » أحنقه أن تطالبه القاهرة بهذا ، وعبثاً حاول « إسماعيل بك » أن يقنعه بالخضوع لما يريد أهل القاهرة ، فقد غادر قصره ساخطا متوعداً .

انطلق صوت المؤذن يدعو «القاهرة» إلى صلاة فجر يوم جديد . وكانت «القاهرة» كلها مازالت مجتمعة فى الأزهر ، بينما جلس الوالى فى حلقه معربدة من رجاله ومحظياته يشربون الخمر ويدخنون الحشيش . وقالت المحظية الأولى وهى تدنى كأسها من فم الوالى :

— مازال الفقراء والفلاحون مجتمعين فى الأزهر منذ أربعة أيام !

فابتسم زوجها وهو يقول : « سنقتلهم جميعاً اليوم . اليوم هو آخر حياتهم ! » . وطرب الوالى للفكرة ، فأسند رأسه على صدر الزوجة الثملة وقال : «سنمضى نحن الثلاثة . أنا وأنت وكبير الشرطة فقط ! » . فقالت الزوجة « أقتلوهم ، ولكن لا تقتربوا منهم . إن رائحتهم تزكم الأنوف والحشرات تطير من أجسادهم » ، وضحك الوالى السكران ، وقالت امرأة كبير الشرطة وهى تبعد عن فمها «الشبك» المذهب وتنظر فى دخان الحشيش « خذونى معكم ، إنها فرجة لذيذة » .

وضحك الجميع ، ثم نهض الوالى ومعه الرجلان .

ومضت الجياد الثلاثة تقعقع بسنابكها أرض « القاهرة » الخاوية .

والوالى لايخفى عجبه لهؤلاء الذين تظاهروا ضده : كيف يتوقحون ؟ !. وشاهد الوالى طفلا صغيراً أمام باب منزل ، فتوقف وسأله : « لماذا تقف هكذا؟» وقبل أن يجيب الطفل اقتحمه بحصانه وضج التابعان بالضحك. والدم يسيل من فم الطفل الذى كان منذ لحظات يبتسم لشعاع الفجر الجديد . ورفع رئيس الشرطة جثة الغلام بسيفه ، وهو يتأمل بإعجاب قطع اللحم البشرى التى أخذت تتناثر أمامه .

وكان أهل القاهرة قد فرغوا من صلاة الفجر وخرجت جموعهم إلى قصر « إسماعيل بك » و « الجداوى بك » لتسمع رأيهما الأخير فى قرار العزل . . . .

ورأى الوالى الجموع مقبلة عليه فلأه فرح وحشى وجرد سيفه . . . وكذلك فعل التابعان . . . واندفع أمامه التابع الأول ــ زوج المحظية الأولى ــ وبقى رئيس الشرطة وراءه . .

* * *

ولم يكد التابع الأول يخوض زحام الناس بحصانه وهو يمضى على أجساد حية ضارباً بسيفه عن يمين وعن شمال ، حتى انقضت عليه مئات الأيدى بالصفعات والخناجر وقطع الحديد وسقط من فوق حصانه . . . وتقدم رجل مجهول من الناس فركب الحصان ومضى على جثة التابع الأمين . . واندفع . . واندفعت الصفوف تطوح بخناجرها فى الهواء على الوالى وكبير الشرطة ، واستقرت عدة خناجر فى جسد رئيس الشرطة فسقط على الأرض وتقدم رجل مجهول آخر فركب حصانه ومضى على جثته . . واندفع . . واندفعت الجموع ! . .

من يدرى أى الرجلين كان والد الطفل المقتول ؟ !

أما الوالى فكان قد اختفى تماما .. طار بجواده إلى قصر «إسماعيل بك» يسأله الحماية ويرجوه أن ينقذ رأسه .. والطغاة عند ما يسقطون يقرعون الأبواب كالشحاذين !

وصاح رجل من بين الناس : « فلنطارد الوالى إلى قصره ! » . . . . واندفعت الجموع إلى قصر الوالى ، فتحطمت الأبواب ، وامتلأت الردهات بجثث الجنود والضحايا . . وأخيراً سقط القصر . . .

* * *

ووجد الناس فى أركانه أطيب الطعام والشراب ، وأكداساً من الذهب ! . وكان الحقد الهائل يلهب غضبهم وهم يشاهدون جدران القصر موشاة بالذهب ، وخصور المحظيات ونحورهن تلمع بالجواهر النادرة ! . واختطف رجل حلية من عنق جارية وهو يقول : « خذوا خذوا . . . هذه أموالنا المنهوبة ! » . . . وقضم فتى آخر قطعة من الحلوى وهو يقول لزميله : « تمتع يا شيخ . . هذا طعام لا نعرفه » . . وركل أزهرى شاب المحظية الأولى التى كانت كزوجها تضرب الرجال من ظهورهم بخنجر وهو يقول : « ذهب عهد المحظيات ! »

وطعم الجياع كما لم يطعموا من قبل ! . .

* * *

ثم تحرك الموكب إلى قصر « إسماعيل بك » وكان قد جمع أمراء

المماليك فى قصره وأقنعهم بأن قصورهم نفسها مهددة بمثل ما حدث لقصر الوالى « أحمد أغا » . . . . وردت الرجفة إلى النفوس بعض التواضع ، وحطمت كثيراً من الصلف والكبرياء ، واستقر الرأى على تنفيذ قرارات الأزهر له . . .

ونزل « إسماعيل بك » ومن ورائه الأمراء يستقبلون الثائرين فى أدب جم . . وانحنى « إسماعيل بك » ، ولم يكن من قبل لينحني ، وأعلن أن الأمراء يوافقون على ما يراه الشعب . . .

وهلل الناس مستبشرين . . .

ثم تقدم لعلماء الأزهر الذين كانوا فى طليعة الثائرين وأشار إلى الوالي الجديد على « الحسينية » ، وإلى ولاة الأحياء الأخرى ، وسألهم إن كانوا يوافقون عليهم ، وكان الولاة جميعاً ينحنون !

* * *

وتقدم الولاة الجدد فى خشوع وإذعان فقبلوا أيدى العلماء . . .

وقال إسماعيل بك : « يا أسيادنا الشيوخ . . . لسنا حكاما ، وإنما نحن عبيد فضلكم ! »

وفى الحق أنهم فى تلك اللحظات كانوا أطوع من العبيد . . .

وعاد الناس إلى بيوتهم راضين ففتحوا الحوانيت . . . . ونامت « القاهرة » كأطيب ما تنام المدن الظافرة وقد التأمت فى قلبها بعض الجراحات . . .

* * *

وعادت « الحسينية » إلى ركاب الحياة تعمل وتضحك وتنتظر ما يكون من أمر الوالي الجديد

والفجر يلوح !




البحث عن

أيمكن هذا يا رب ؟ . ولكنك يا سيدى النقيب لا تعرف أية آلام أعانيها بلا أمل فى العزاء ! أنا أعرف كل ما يضطرم فى نفسك الرقيقة الرحبة يا سيدى . . أنا أعرف آلامك أيتها الأميرة الطيبة القلب . . غير أنى لست أعرف . . غير أنه لم يكمل ، وترك الأفكار تحتدم فى صدره . وأطرقت هى برأسها الدقيق البديع ، وأخذت تصلح عند منبت شعرها الأسود الجميل حافة الشال الحريرى الذى يستلق على كتفيها الشائقتين فى ترف محتشم . . ولم يطل هذا الصمت فقد باغته الضيق فانفجر يقول :

ــ أكان يجب أن تتزوجى مراد بك ؟ ! . . أكان يجب إذن أن تكونى أنت زوجة لمثل هذا الرجل ؟ ! . .

وإذ ذاك رفعت على استحياء وجهها الناصع الرائق ، . وتنهدت ! . . وغشى وجهها ندم حزين يائس . . ثم قالت :

ــ أكان زواجى به حقاً خطيئة تستحق كل هذا العقاب ؟

أى عقاب معذب أن ندرك فجأة أن أجمل أيام حياتنا لم تكن غير أكذوبة ! . . إن قوى العالم جميعاً ـ حتى الموت نفسه ـ لا تستطيع أن تدخل إلى نفوسنا شيئاً من عزاء أمام مثل هذه الصدمات !

عريضة ! . . لكم أعجب أن تكون نفيسه زوجة لمراد بك :

ــ إننا لنعيش السنوات الطوال إلى جوار هذه الكائنات القوية المتعجرفة التى يصور لنا غرورنا الأنثوى أننا قد امتلكناها على حين لا سلطان لنا حتى على شهواتها ! . . إننا لنعطيها كل حبنا وكل نفوسنا ، ونطلعها من أعماقنا على حالتا من الأهواء والنزوات ، وعلى ضعفنا البشرى ،

وتختلط منا الانفعالات والأفكار والعرق والأحلام ! . . وهكذا تمر بنا الأيام والليالى . . نكون قد قلنا كل شيء وصنعنا معاً كل شيء . . ثم . . يحدث فجأة شيء رهيب تنتفض أمامنا حقيقة رهيبة كالصدمة : إننا لم نتحد أبداً ، وأننا أنفقنا أجمل أوقات العمر نزيف على أعصابنا السعادة والضحكات والمتاع ، وإذا كل هذه الأشياء الرائعة التى ملأت بالنور والزهو والكبرياء لم تكن غير تلفيق وخداع . . أباطيل . . أوهام ! ! أوهام ! ! وانكفأت على مقعدها ترسل الدموع . . فتحرك فى مقعده قليلا وقال فى صوت هادىء مشرق :

ــ وأنك مع ذلك يا سيدتى لتملكين حياتك كلها . . وتملكين مستقبلك على أية حال ! . . إننا نستطيع دائماً أن نجعل من غدنا أجمل لحظات العمر

ــ لا تحدثنى عن هذا بعد ! لست طفلة لتقول لى مثل هذا الكلام ! . . ثم عادت تضع رأسها فى يديها تبكى وتركها تبكى . . ولكنها صرخت من أعماق مرارتها :

ــ أهو يصنع معها الآن نفس الأشياء التى كان يصنعها معى ؟ ! أهكذا يشترونه بجسد إمرأة ! هذه الجارية الأعجمية التى أمتلك عشرات من أمثالها

ــ من قال لك أنهم قد اشتروه بجارية ؟ ! . . إنك لطيبة القلب يا سيدتى . .

ووثبت من مقعدها فارغة الصبر وهى تقول « ماذا إذن ؟ » .

ولكن لماذا تجزعين هكذا يا سيدتى ؟ . . إنك لتملكين الرحمة التى فى القلب ، والدم الذى فى العروق ، وكل هذا يستطيع أن يصنع لك العزاء .

ــ العزاء ؟ .. ماذا تقول ياسيدى النقيب ؟ . . ألا ترى ؟ أنظر ماذا يصنع هذا الرجل الذى منحته حياتى ، إنه ليخونها بلا رحمة . . لقد كننت

دائماً أرى من خلال صلفه و بطشه وحماقته إنساناً نبيلا عذب النفس ! . .

لم يكن أبداً هو ذلك الطاغية الذى كنت تصوره لى ، ولم يكن متوحشاً كما كان يحب أن يصور هو نفسه . . كان يعرف الألم ، واللذة ، والانفعال والدموع . . حتى عندما كان يصنع الدموع للآخرين . . وعندما أقبل الفرنسيون عرض نفسه للموت ليحمى بلاده ، ولقد أحببته فى تلك الأيام أكثر من أى لحظة أخرى . . وكنت فخورة بزوجى الجسور ، حتى عندما هزم . . ولكنه اليوم ؟ يا إلهى . . أكنت حمقاء مخدوعة إلى هذا الحد؟. إنه اليوم . . أنظر إلى أين ينحدر . . إنه يتفق مع الفرنسيين لمجرد أنهم أهدوه جارية أعجمية شقراء وينسى أنهم يحتلون بلاده .

— بلاده ؟ بلاده هو ؟ ! . . متى كانت مصر بلاده يا سيدتى ؟ إنها لم تكن كذلك أبداً . . . ولقد قلت لك هذا ألف مرة ، ولكنك لا تفهمين يا سيدتى الأميرة ! . .

إن كل ما يعنيه من هذه البلاد إنما هو أن يبتز من خيراتها ليعيش فى ترفه الوحشى الماجن المستبد ! . . . فليقبل الفرنسيون أو الأتراك أو الانجليز أو الشياطين من وراء البحار البعيدة ! . . . إن كل هذا لا يعنى مراد بك أو غيره من الأمراء ما داموا يستطيعون فى النهاية أن يملأوا القصور بالجوارى ، وأن يشربوا الخمر الفاخرة ، ويأكلوا فى صحاف من فضة . . ! إن أكداس الذهب — لا مصر — هى وطنهم ، وإنهم ليركعون على الوحل نفسه ليلتقطوا منه الذهب ! أتفهمين — ألم يعرضوا حياتهم لخطر الموت وهم يقاومون الجيش الفرنسى ؟ . . عند ما تخيلوا أن جيش الاحتلال سيحرمهم من بعض ما ينعمون به . . على أنهم مع ذلك لم يعرضوا حياتهم لخطر ما . . . فعند ما أحدق الخطر ، نجوا بأنفسهم ،

وتركوا القاهرة تتلقى غارة الاحتلال وتقاوم سلطانه فى كل نهار وليل !..
ولكنهم اليوم عند ما لوح لهم الجيش المحتل بالذهب أخذوا يشهرون السلاح فى وجه قوات الشعب ليحموا قوات الاحتلال ! أليس كذلك ؟ إنهم يحمون مصالحهم لا الوطن ..!

يا سيدتى ! . . . . أتحسبين إذن أنهم يفكرون فى حرية الشعب وأقوات الشعب ؟!

أليسوا هم الذين سلبوه القوت، وأرهقوه بالضرائب وملأوا السجون، وسفكوا الدماء، وشبعوا نكالا وتعذيبا، إن هذه الحرية التى تحسبين أنهم دافعوا عنها فى حربهم مع نابليون لن تكون هى حرية مصر وإنما كانت حريتهم هم فى أن يسرقوا طعام الجياع، ويبعثروا المال على الخمر والنساء. حريتهم فى أن يخنقوا الوطن ويستغلوا أبناءه كما يشاءون. وأن جيش الاحتلال ليستطيع اليوم أن يحمى لهم هذه الحرية أضعاف ما يستطيعون هم أنفسهم، وهم من أجل ذلك ينحنون إلى الأذقان ليلعقوا حذاء المحتل، وكان يذرع أرض الحجرة وهو يصيح ويغلى ويلوح بيديه تماماً كما لو كان يخطب الناس. وفى تلك الأيام كانت القاهرة تضرب بلا انقطاع، وتتلقى الضربات وتترنح لبعض الوقت، ثم ترفع المعول من جديد، كان الرجال والنساء يقيمون المتاريس ويسددون الطعنات إلى الجيش المحتل ويهوون تحت الرصاص، ويحاسبون الخونة. وقد تركوا البيوت وأقاموا على ظهور الشوارع، ينامون، ويأكلون ويكافحون، ويتبادلون حراسة المتاريس وكانت القاهرة فى تلك الأيام قد صنعت المدافع لأول مرة فى تاريخها الحديث. صنعها الشعب نفسه فأقام مصنعاً للبارود وأنشأ مصنعاً ليزوده بالسلاح وكانت البيوت قد خلت من أوانى النحاس وقطع الحديد، فكل

شيء يصهر ليصنع منه السلاح ولم تكن فى كل القاهرة إمرأة تتزين بالحلى، فقد تخلين جميعاً عن كل مالديهن جميعاً من زينة ليكون ملكا للثورة . كان التجار يوزعون الطعام بلا ثمن على المحاربين ، ولم يكن هناك تجار يكسبون من بيع السلع فقد كانت الثورة هى التى تملك كل شيء: الأعصاب، ونفوس الأفراد، وما يقتنون . ومع ذلك فما زالت الثورة فى حاجة إلى مال ومضى النقيب« السيد عمر مكرم» إلى السيدة نفيسة المرادية يطلب منها مالا للثورة.

وكانت السيدة قد تعودت أن تمنح الثورات السابقة .. كثيراً من المال . غير أنه وجدها متعبة القلب ، تفكر فى زوجها الذى ارتمى فى أحضان الفرنسيين فجأة ، وتبحث وراء خيانته عن إغراء امرأة ؟ ولم يكد النقيب ينتهى من كلامه حتى وقفت السيدة فى صمت لا يفصح عن شيء . . وجلل السكون أبهاء القصر الضخم لبعض الوقت . . ومن وراء الأسوار فى الطريق الذى تملأه أشعة الشمس مختلطة بزحام الناس ، كانت أصوات المعركة تهز الأرض والسماء ، وسكون القصر ! وتحرك النقيب متحفزاً كجواد يريد أن ينطلق ثم قال فى رهبة : « أتسمعين ؟ . . . صرخات النساء تختلط بزئير الرجال .. الكل فى واحد يضربون نفس الضربة من أجل التحرير » وكانت الضجة تقترب من القصر وتصل إلى سمع السيدة ، طلقات البارود مختلطة بأصوات . . الإنسانية وأحست السيدة بأن هذا الزحام يجذبها فى قوة لا تقاوم كشدة الجذب لتتموج مع هـــذا العباب البشرى .. ورأى النقيب على وجهها ابتسامة تحاول أن تشيع .. فاستمر يقول :

ـــ والنساء أيضا.. النساء قبل الرجال ياسيدتى !. كل امرأة تشعر فى أعماقها بأنها يجب أن تعمل لتجعل طفلها يعيش..ويعيش أسعد مما عاشت هى . والعذارى يندفعن ليصنعن لأنفسهن غداً آمناً ممتعـــاً لا تروعه الدماء ،

لاتقتله الحاجة ، ولا يفزعه القلق .. ومن هنا يا سيدتى يلبثق العزاء .. العزاء الذى يخلق والذى يجعل مأساة حاضرنا ليست غير زقاق مظلم مخيف يجب أن نجتازه لنظفر بالفضاء والحرية والنور ! والضجيج ما زال يختلط بشعاع النهار خارج أسوار القصر ويصل إلى سمع السيدة..وأحست بقلبها يدق ، وبأشياء متفاعلة تنبض فى كل بدنها الرخيص ،حتى لقد أوشكت أن تنسى أن لها بدناً ، فنى بعض اللحظات لا يكاد الإنسان يشعر بكيانه إلا بأنه مجموعة أشياء متفاعلة ، وطاقات ! . .

وفجأة سألته السيدة : « أجئت تطلب مالا للثائرين ؟ » فأجاب : بالضبط . . . »

ودخلت السيدة ثم عادت فأعطته صندوقا . . . ثم خلعت كل ما على جسدها من حلى وجواهر وهى تقول : لم يبق لدى بعد شىء أعطيه غير حديد القصر . . وإنكم لتستطيعون أن تأخذوا كل ما فى القصر من حديد ونحاس لتصهروه فى مصانع السلاح !

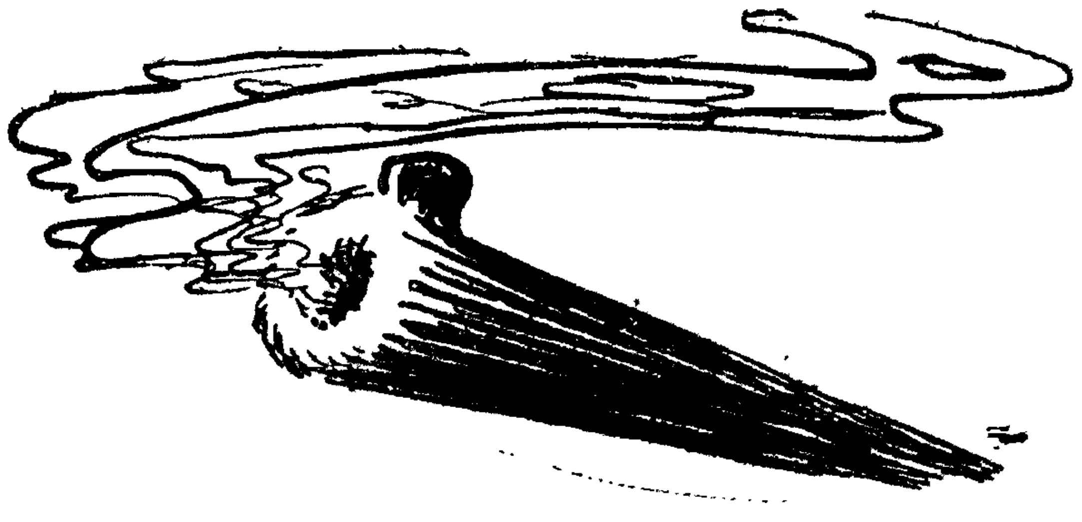
وتحرك النقيب عجلا إلى زحام الثائرين . . ولكنها استوقفته قائلة :

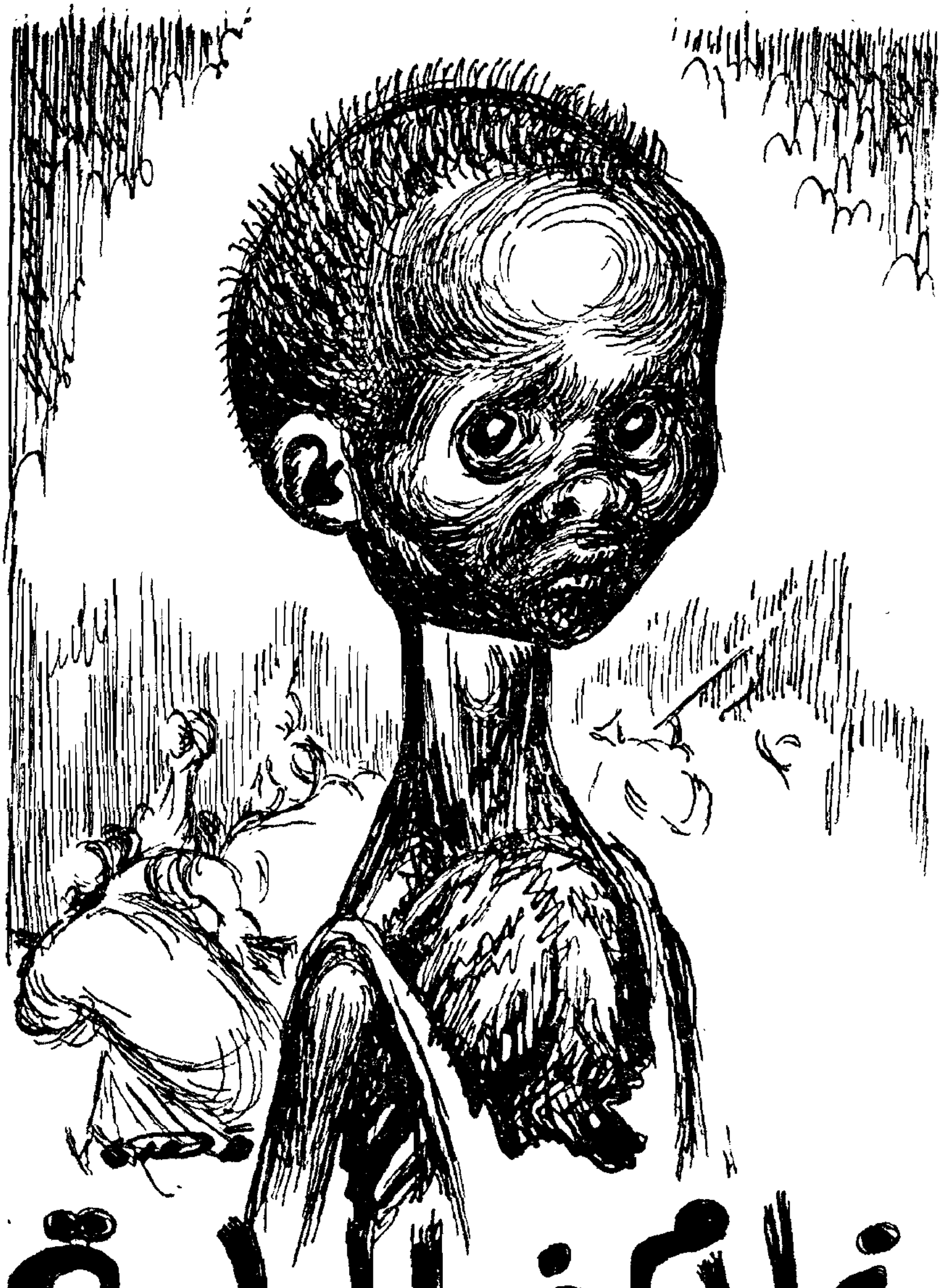
ــ أنتظر .. فما زال لدى شىء أعطيه ! ودخلت مسرعة كالدوامة .. ثم عادت . . . . عادت وقد ارتدت ثياب فارس ! . . . . واندفعت إلى الباب تقول :

ــ فلندخل فى زحام الناس ! وغير بعيد من القصر كان النهار ما زال ينبض باندفاع السواعد . .

وفى ذلك اليوم عرفت السيدة نفيسة كيف تخفى رأسها البديع وراء المتاريس ، وكيف ترفعه لتطلق النار . . . واختلط بدنها الرخص بنساء أخريات من الشعب أبدانهن مهزولة عجفاء . . وعرفت كيف تزحف على

الترب ، وتتقهقر ، وتنصب قوامها فى الهواء ، وتندفع ، وتصيح مع الصائحين ! وعند ما أخذت الشمس تلقى أشباح الغروب على فلول الجيش الفرنسى المتقهقر ، كانت السيدة نفيسة تعود إلى قصرها وقد أسودت يداها بالبارود وعفر الدخان وجهها الناصع . . وعلى طول الطريق كانت تفكر فيما يجب أن تصنعه فى الثورة من غد ؟ وفى الحق أنها تعد متعبة القلب ، فقد وجدت العزاء ! . . كانت تشعر فى كل أرجاء نفسها بسعادة لم تعرفها من قبل . . وتحس بنشوة من يقبل فى حياته على أسعد أيام العمر !





غلام فى المقاومة

أرمان . أرأيته يا أرمان ؟ إنه لم يزل بعد فى العاشرة من عمره. وهو شاحب هزيل تتفرع من على بدنه الجاف أطراف دقيقة كالعصى. ولو أنك أمسكت به لخفت أن يتهشم فى يدك كعود يابس من البرسيم . ومع ذلك ياصديقى أرمان فإن فى عينيـه شعاعاً عجيباً ! . يا إلهى إنك لاتستطيع أن تنظر إلى عينيه .

ـــ لماذا تصوره لى هكذا كأنه خرافة تعبر إحدى الأساطير العامرة بالخوارق والمعجزات ،

ـــ وإنه لكذلك . إن هذا الصبى المصرى لمعجزة يا أرمان . وإنه ليحمل إلى نفسى ريحاً قديمة مشبعة بعطر القرون الغابرة ، وبذكريات من بطولتنا المقدسة ، ألا يذكرك هذا الفلاح الصغير بجان دارك ؟

ـــ أجل أيها الأبله . وسنحرقه كما أحرق الإنجليز جان دارك ! ، كانت هى الأخرى ساذجة طاهرة فقيرة . غير أننا لن نترك هذا الغلام ليصبح « جان دارك» أخرى أتظن أن قائدك العزيز يصنع هذا ؟ ؟ إنه ..

ولكن زميله قاطعه مبهوتاً

ـــ أرمان . أجننت؟ لاتتحدث هكذا عن القائد ـــ وسكت « أرمان » وأخذ يسرح طرفه فى حقول الصعيد التى تستلقى تحت سفح الصحراء ، ثم قال:

ـــ لقد حدثتنى عن جان دارك، والمعجزة، إن المعجزة لتنبع من هؤلاء الذين نحصدهم بلا حساب ـــ يا أندريه إن إرادة الحياة تجعلهم يصنعون أشياء تبدو لنا نحن خارقة ! نحن ؟ أية سخرية ! لقد صنعنا بدورنا أشياء خارقة هناك .ولكن الذين قتلوا « روبسبير » وأرادوا أن يقتلوا الشعب

الفرنسي خيل إليهم أنهم يستطيعون أن يقتلوا كل الشعوب ، ستمحا كون الفلام المصرى اليوم ؟

حسنا أما أنا فلن أسمح بقتله أبداً أتعود مرة أخرى إلى عصور الشهداء والقديسين؟ ! ودهش أندريه فأقبل على صديقه هامساً : « يجب أن تكتم نزعاتك هذه يامجنـــون ماذا تريد ؟ ألم يعظك مصرع « مارا » و « روبسبير » وكل زعماء اليسار ؟

ولكن أرمان قال له كالهامس ــ أيمكن هذا ؟ سنصبغ هذا الأفق كله بالدم ونزحم هـذا الفضاء بالجثث من يرى ياعزيزى أندريه ، ربما استلقيت أنت أو أنا هنا فى هذا المكان إلى آخر الزمان ، الرأس هناك ... والجسد ... من يعلم أيضاً لعله يصبح طعاماً لتماسيح النيل أو لعل قطعه توزع بين النهر والوادى ولم يجب « أندريه » فقد شعر بانقباض مفاجىء ... وظل أرمان ينظر إلى غير شىء . . وكانت أشعة ديسمبر الفاترة تملأ نفسه بألم هادىء عميق وشرع يتمتم بأغنية قديمة حزينة من أغانى فرنسا وعلى مقطع من الأغنية يصور المجاعة والبؤس ، أخذ « أرمان » يهز رأسه، ثم قال فجأة :

ــ إنك لاتعرف يا أندريه أن لى هناك ولداً فى العاشرة أيضاً .

ــ لشد ما أتمنى يا أرمان لن أعود إلى فرنسا لأنفق ما بقى لى من العمر هادىء البال. ناعما بالدفء بين زوجتى وأطفالى .. ولكنها الحرب! لست وحدك يا أرمان . . إننا جميعاً نحن شوقا إلى الزوجات والأطفال .

ــ وإلى متى يا أندريه هذا الاغتراب الممض ؟ . . إلى متى نحارب على الرمال تحت وهج الشمس ، وفى عواصف الرمل؟ لقد حدثونا أننا سنجد هنا جنات نغتصبها من أهلها فى يسر . . ولكن أنظر . . كم فقدنا هنا من أصدقائنا ! إننا نقبل على القرية وهى آمنة ونحسبها ستركع تحت أقدامنا

فتلقا بالويلات ، ويصطف الرجال والنساء ، ليقذفونا بالسهام والسيوف والصخور ، فاذا أعيتنا الحيل أحرقنا القرية على من فيها ، ومضينا إلى غيرها لسفك الدماء ونتلقى الضربات!! لماذا يحدث كل هذا ياصديقي أندريه؟ أهذه هي الحرية التي تنشر أعلامها في الأرض . .

ـــ أرمان .. أسكت ..

ولم يكن أمام أرمان غير السكوت ، فقد أقبل جندي يدعو الضابطين إلى مجلس القائد ليشهدا محاكمة الغلام المصري وفي خيمة القائد . وقف الغلام المصري حافي القدم ، عاري الرأس ، ممزق الثياب . . وكانت ثيابه المهلهلة تكشف عن جسده البرنزي الأعجف أكثر مما تستر . ومن حول الغلام وقف حراس عديدون وبنادقهم مصوبة إلى بدنه الضئيل . .

أما الغلام فقد كان من القرية التي رست السفن على شاطئها ، تحمل فرقة من الجيش الفرنسي . وقد تعود منذ أيام وهو يلعب أمام مسجد القرية أن يسمع الناس يتحدثون بعد الصلاة عن هذا الجيش الذي يزحف بلا توقف ، ويرسل على المدن والقرى كسفا من نار .. ومن هذا المسجد سمع أيضاً أن الأمراء الذين كانوا يحكمون البلاد ، قد هربوا بما يملكون من ذهب ، وبمـــا اغتصبوا من ماشية وقمح وسمن ، وسلاح ، وكان الناس يحمدون الله كثيراً لأنه خلصهم من حكم الأمراء ، ويدعونه أن يخلصهم من هذا الجيش الزاحف . . فسينتزع منهم ما بقي لهم من طعام ! . وظلت تلك القرية من «بني سويف» تجتمع في المسجد لتدبر أمر السلاح . . فلم يكن في القرية كلها بندقية واحدة وقد جمعت القرية كل ما لديها من فؤوس ومعاول وسيوف وخناجر .. ولكن لابد لكل رجل فيها من بندقية لتصد الفرنسيين

ـــ وسأل الغلام أمه عن البندقية ، ماذا تكون ؟ فقالت له : « هي التي قتل بها الأمير خالك في العام الماضي ! » وعرفها الصغير ، فقد شاهد الأمير ينادي خاله ذات صباح ويغلظ له في القول ، و عندما رفع خاله رأسه

ليتكلم صوب إليه الأمير قطعة داكنة من الخشب والحديد ، وغمزها فدوت منها فرقعة مخيفة أزعجت القرية كلها . وانبعثت منها شعلة أحرقت رأس خاله ! ــ لكم تمنى الصغير أن يحمل هو الآخر هذا الشيء ذات يوم ليحرق به رأس الأمير ــ ولكن الأمير الذى هرب مع غيره من الأمراء ، حمل معه كل ما يستطيع من بنادق ، والقرية تتوقع فى كل نهار وليل أن يباغتها الجيش الفرنسى بالهجوم .

وعاشت القرية أياما طوالا تصبح وتمسى ، وكل رجل فيها يفكر فى طريقة للحصول على بندقية .. وقد رأى الطفل حيرة أبيه وبات هو نفسه يحلم ببندقية فى الليل ، فاذا أقبل على رفاقه الصغار فى الصباح ظل يتحدث ، ويلعب ، وأمام عينيه تتراقص صورة بندقية . . كبيرة بعرض الأفق ! وكان الجيش الفرنسى قد اتخــــذ معسكره على شاطىء النيل ، وقد علمته التجربة ألا يهاجم حتى يستكمل أهبته .. فأقام فى انتظار مدد فى الطريق .. ويوما بعد يوم لم يعد الصغار فى القرية يلعبون أمام المسجد ، وإنما أخذوا هم أنفسهم يروون لبعضهم ما سمعوه من الآباء والأخوة الكبار .. فهذا رجل أخذ ما عنده من حديد ونحاس ومضى به إلى حداد القرية ولكن الحداد لم يستطع أن يصنع له بندقية .. أما الآخر فقد أفلح معه الحداد ، ولكنه فى اللحظة الأخيرة أدرك أنه لايعرف أين يوضع الرصاص .. وذات صباح قال الصغير لرفاقه «تعالوا نتفرج على الجيش» .. وخرج الصغار إلى الشاطىء ليروا وجوه هؤلاء الجنود ، الذين أقبلوا من بعيد ليسرقوا منهم الطعام والأرض . . ثم انحدروا إلى المعسكر خفافا شاحبين كالثعالب الصغيرة ، حتى لاح لهم من بعيد جندى أشقر يغدو ويروح بملابسه الزاهية ، ونياشينه تسطع تحت وهج الشمس ، وفى يده بندقية ! وعندما رآه الصغار ورأوا البندقية ، غمرهم شعور عجيب .. فالتقطوا من الأرض بعض الحصى وقذفوا

بها المعسكر .. ولم يصيبوا الجندى ، فقد كان أبعد من مرمى أيديهم الصغيرة غير أن الحصوات وقعت على مقربة منه ، فالتفت إليها وتحرك نحوهم . . وذعر الصغار ، فأسرعوا إلى القرية مهرولين ، أما هو فلم يجر معهم وإنما سقط فى مكانه واختفى بين أعواد القمح ، وظل يرقب الجندى وهو يروح ويغدو ، وقد صمم أن يعود إلى أبيه ومعه بندقية ! ..

وأخذ الصغير يزحف على الأرض حتى بلغ المعسكر . . واستدار وهو يزحف فأصبح أمام ظهر خيمة . . وهناك إلى جانب الخيمة شاهد بعض الجنود يتحدثون بلغة غريبة لم يسمعها من قبل ، وهم يتطلعون إلى النيل . وقد طرحوا بنادقهم وراء ظهورهم على الأرض . . . وإذ وجد الغلام نفسه آخر الأمر وحيداً أمام عدة بنادق ، إنحنى فى خفه فالتقط واحدة.. وهم بأن يعود إلى أبيه . . . غير أن البندقية لم تكن خفيفة على الاطلاق فجرها على الأرض ، واندفع بخطوات مثقلة . . . إلى القرية — وشعر الجنود بصوت غريب فالتفتوا إلى الخلف وأبصروا الغلام يسحب البندقية ويجرى إلى أول الطريق . . . وأسرع أحدهم وراءه فلحق به ، وحاول انتزاع البندقية من يده ، ولكن الغلام تشبث بها ، وكأنما تشنجت عليها يداه . . وأخيراً استرد البندقية ، وأخذ الغلام إلى القائد . . واصطحب معه الترجمان . . . وعجب القائد لهذا الفتى الصغير ، الذى يوشك أن يخر على الأرض من فرط الجوع . . وعرض عليه القائد طعاماً فرفض قائلا أنه لا يقبل طعاماً من هؤلاء الذين يحرقون المدن والقرى فى مصر ، لأن طعامهم كله سموم ؟

وحاول القائد أن يعرف شيئاً من الغلام .. وظل يستدرجه ، ويغريه لعله أن يبوح بأسرار القرية ، ومدى استعدادها لمقاومة الجيش الزاحف ،

ولكن الصغير ظل صامتاً .. وكان دائماً يرسل من عينيه الضيقتين نظرات ثابتة تومض بالشرر .

وعقد له القائد فى خيمته جلسة محاكمة فربما كان وراء تصرف الصغير تدبير من كبار . . وسأله القائد : « لما صنعت هكذا ؟ »

ورماه الصغير بنظرته القاسية الملتهبة . . وطافت بذهنه صور المسجد واجتماع أهل القرية فيه ، وحيرتهم فى البحث عن البنادق !

فأخذ يقلب نظره إلى البنادق فى أيدى الجنود من حوله .. ولم يجب ! وقال له القائد « لا تخف . . لماذا صنعت هكذا ؟ »

فأجاب على الفور « أنا لا أخاف أحداً ... هذا أمر الله »

فسأله القائد « من الذى أمرك بهذا ! قل من أمرك »

فقال الصغير ببساطة « أمر الله » وهمس « أندريه » فى أذن أرمان « إنه يتحدث تماماً كجان دارك » فعاد القائد يقول « قل الحق وإلا قتلك من هو الذى أرسلك إلى هنا ؟

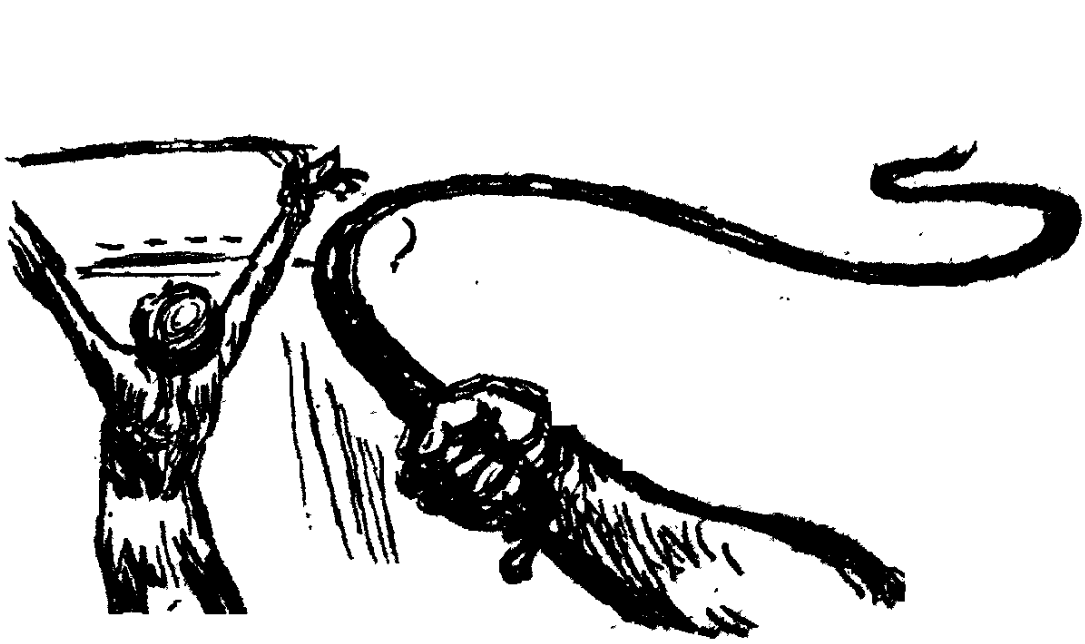
فأجاب الصغير هادىء النفس « إن رأسى بين يديك فخذها إذا شئت » ونظر الجنود إلى بعضهم ذاهلين والتفت القائد إلى من حوله وارتفعت همهمة الدهشة من كل مكان واستمر الصغير يقول : «الله هو الذى أرسلنى إلى هنا ... قلت لك ! » ومال القائد على جاره قائلا :

« لا فائدة . . سيكون خطيراً عند ما يكبر فلنقتله ؟ — وارفع صوت « آرمان » حاسماً جزعا : « لا . . لا تقتلوا صغيراً فى العاشرة لأنه يدافع عن وطنه . . . إننا لنتمنى أن يدافع أبناؤنا هناك عن الجمهورية . . . بمثل هذا الإصرار ! »

وتمتم أحدهم : « سنروى قصة هذا الغلام المصرى لأطفالنا فى فرنسا ليكون مثلا أمامهم : »

وقال ضابط آخر : « سنخسر كثيراً لو قتلناه ! »

واصدر القائد حكمه على الصغير أن يجلد ثلاثين جلده — ووقفوا كلهم يشهدون التنفيذ .. أما «آرمان» فقد أغمض عينيه ووضع أصابعه فى أذنه كيلا يرى ولا يسمع صرخات الصغير . . . ولكن الصغير لم يصرخ على الإطلاق . . . فقد ظل يكظم آلامه حتى حملوه إلى خارج المعسكر . . . وعند ما مست قدماه أرض الحقول فى الطريق إلى القرية شعر بمثل اللهب يشتعل فى كل ساقيه . . ومضى متثاقلا خطوة بعد خطوة وهو يخلف على الأرض فى خطوه قطرات من الدم . . . ولكنه لم يصرخ ! وإذا دخل القرية غلبته الدموع ثم استغرقه بكاء عميق ونشيج حاد . . . لقد عاد إلى القرية وليس معه بندقية لأبيه .




عندما

ـ أسكت أنت يا شيخ . . أسكت قلت لك . . ليس من حقك أن تتكلم اليوم يا شيخ مهدى

ـ يا مولانا . . أنا أقصد . .

ـ تقصد ماذا ؟ . . أنت لا تفهم شيئا مما يجرى الآن ، إذهب أنت إذا شئت واركع تحت أقدامه واسأله المغفرة . . . قل له كما قلتم جميعاً يا حامى الاسلام والمسلمين ! .. هو ؟ .. هذا الطاغية الذى أقبل من بلاد بعيدة ليثخن فى هذه الأرض ويسفك فيها الدماء ! ؟

والتقط مسبحته التى وقعت على سجاد الغرفة ، وعاد يتمتم وهو يحرك حباتها ، وكل بدنه يرتعش . . لم يغضب « الشيخ السادات » كما غضب فى تلك الليلة ، ولقد رآه الذين من حوله ينظر إلى السماء ، ويدور فى الغرفة ، ويطأطىء رأسه ، ثم يعود فيفتح صدره ويشمخ بجبينه ، وهو لا يكاد يعرف ماذا يصنع . .

وكانت طلقات المدافع من خارج القصر تزلزل أركانه زلزلة هائلة ، وينتهى إليه دويها المخيف مختلطاً بصرخات الرعب وصياح النساء . فتسرع أصابعه بتحريك حبات المسبحة . وأقبل رجل من الخارج يقول فى صوت كالأنين : « لقد سقطت بولاق ، والحرائق فى كل مكان ، وهم يتقدمون ! » .

وإذ ذاك قال الشيخ مهدى كأنما هو نفسه الذى يتقدم : « أنظر يا مولانا . . . أنظر . . ألم أقل لك . . . أن كليبر سيبتلع القاهرة ؟ . . .

ستسقط تحت أقدامه بلا ريب . . . فلنتقدم نحن إليه إذن لننجو برؤوسنا » .

فنظر إليه الشيخ السادات فى سخرية وهو يقول : « أما رأسك أنت فلن تسقط يا شيخ مهدى . . إن الرؤوس التى تنحنى لا تسقط عادة فى معركة الحرية » .

ودهم الحرج نفس « الشيخ مهدى » .. ورأى أمامه رجلا متغطرساً ، ربما قتل بعد قليل ، وهو مع ذلك ما يزال يملك المقدرة على ازدراء السادة الذين يزحفون .. فقال :

« — وبعد ! . . وبعد يا مولانا ؟ . . أنت لم تشأ من قبل أن ترسل رجلا منا يطلب معونة أمراء المماليك .. والآن . . ! »

فقاطعه الشيخ السادات محنقاً : « معونة المماليك ! . أيها الشيخ الذى دار الذهب برأسه . ماذا تقول ؟ ألم تصلك أنباء سادتك ؟ . ألم تعلم أن كليبر ومراد قد عقدا عقداً بينهما موثقاً ، وأن مراد قد أصبح الآن أميرا على الوجه القبلى تحت حكم مولاك كليبر ؟ وأن مراد الذى وقف معنا ذات يوم يحارب الفرنسيين قد انتهى أمره وعاد كما كان عبداً لشهواته . فهو الذى أعان كليبر على حصار القاهرة ، وأرسل إليه الغلال والمؤن . لقد ظل المحروقى التاجر الوطنى يبحث فى كل مكان عن غلال يطعم بها أهل القاهرة ، ولكن مراد كان قد حصل على كل شىء ، وأرسله إلى الجيش المحاصر . قل له يا سيد محروقى أية متاعب لقيت . وقل له شيئاً آخر . قل له بكم من الأموال ضحيت فى ثورتنا هذه ؟ » ألم تعرف هذه القصة يا شيخ مهدى ؟ . ولكنك مغلق القلب ! . تعرف أن مرادا أرسل إلى كليبر سفينة مملوءة بالمفرقعات ليحرق بها القاهرة ، ثم تحدثنى بعد ذلك عن مراد ؟ ! لقد كان

مراد يسومنا العذاب قبل هبوط الفرنسيين ، وعندما أقبلوا ، جمعنا فى بيته يسألنا الرأى والنصيحة . لم نقل له شيئاً إذ ذاك : وتركتنى أصرخ فى أنه هو وغيره من الأمراء مسئولون عن هذا الزحف ، فقد طالما بطشوا بأهل مصر وزائريها على السواء ، وليس من الممكن أن تقاوم القاهرة زحف هذا الجيش ، بعد أن عاشت السنوات الطوال تحت وطأة الأمراء ، جائعة عارية معذبة . . ليس فيها رجل واحد ترك له الأمراء قوة تمكنه من حمل السلاح ! . . أتذكر يا شيخ مهدى . . أتذكر أيضاً عندما انصرفنا من عنده ماذا قلت لك ؟ . . ألم أقل لك إننا يجب الا نعتمد على هؤلاء الأمراء . . أنهم يريدون حماية استغلالهم الوحشى لنا ، ولا يعنيهم من أى يد يلتقطون السوط الذى يلهب ظهورنا : من تركيا ، أو فرنسا ، أو الشيطان نفسه؟ !. ألم أقل لك أننا يجب على اسم الله ، أن نقف جميعاً فى وجه هؤلاء الأمراء وفى وجه الفرنسيين ؟ . . ولكنكم عندما سقطت القاهرة ، ظللتم على اتصالكم بالأمراء ، حتى إذا انهزموا ولم يعد لهم بأس ، ركعتم تحت أقدام نابليون واشتركتم معه فى الديوان : أنتم كبار العلماء ! . . لم يعظكم ما صنعه الصغار منا ، ولم تأخذوا العبرة من هؤلاء الشباب ، من العلماء الذين سقطوا فى المعركة ! . . ألا ترجف عليك أشباح الضحايا ، لتلطم وجهك الأشيب ؟ لقد تمتعتم بالاقطاعات ، وأعفيتم من الضرائب . . مع ذلك فقد ظل الفقراء من العلماء ، بعيدين يحترون ألما ، ويرمقون فى صبر مطلع فجر الحرية ؟ . . أكلتم على مأدبة نابليون ، وازددتم ثراء يوما بعد يوم ، بينما كان رجل كالسيد المحروق ، ينفق فى إعداد الثورة بلا حساب . . كان يسعه قبل غزو الفرنسيين أن يدفع ثقلكم ذهبا ، واليوم . . إنك لا تعرف كم أنفق ، ولن تفهم هذا ولكنكم لا تفهمون !

« ولكنك لست مسئولا ياشيخ مهدى ، أنها خطيئتنا نحن الذين أشعلنا ثورة القاهرة الأولى . . لقد كان يجب أن نتخلص ، بضربة واحدة منكم ، أيها المتعاونون ، ومن نابليون ، ومن الأمراء المماليك . . ولكننا تركناكم ، وتركنا الأمراء .

« وهذا هو حصادنا اليوم! . أما الأمراء فقد باع كبيرهم نفسه لكليبر « ظللتم أنتم تخرجون على الناس كل يوم بكلام مرذول ،عن الهدوء والسكينة، وطاعة الله ! أتجرأون إذن على ذكر طاعة الله ؟ ! . أمن طاعة الله أيها الشيخ الضال أن تسكتوا عن المفسدين فى الأرض ؟ أم من طاعته أن تروا الحرمات تستباح ، والأطفال يقتلون ، ، ثم تقبلون اليد الملوثة بالدماء ؟ ! ماحكم الله فى الذى يقتل مئات النفوس البشرية ؟ أجب . ولكن ما أبعدكم عن الله ياشيخ !!.. تحدثوا إذن إلى الناس كما تشاءون فالناس يعرفون من أنتم ويعرفون أنها هى هى المصلحة التى تنطق لا الدين ! صفوا جهادنا بأنه فتنة ، وازعموا للمستضعفين فى الأرض أن إذعانهم هو السكينة!! ولكنك ياشيخ مهدى أنت وزملاؤك لن تخدعوا الناس شيئا .. لن تخدعوا إلا شياطينكم التى فى الصدور ومطامعكم فى ملء الجيوب والبطون .. انصرف .. انصرف يا شيخ .. فليس من حقك أن تجالس أمثال السيد المحروقى والشيخ راضى وهؤلاء الشيوخ الآخرين الذين أخلصوا الدين لله .. لا لكليبر ! » . .

وانصرف «الشيخ مهدى». وفى الصباح كان «كليبر» يطوف على حصانه شوارع القاهرة ، ومن ورائه أتباع مراد بك . . وفى طرقات أخرى كان الشيخ مهدى ومعه بعض العلماء يدعون الناس إلى الهدوء .

وفى الحق أن كل شىء كان قد هدأ . . ولقد تعثر الشيخ مهدى فى ذلك اليوم ، بالكثير من أشلاء الأطفال والنساء . . كانت القاهرة البديعة قد

استحالت إلى خرائب ، وكان الهواء ثقيلا مشبعاً بعفونة الموتى .. وكان وحل الأرض قانياً ، تتسايل عليه الدماء ..

ولم يكد المقام يستقر « بكليبر » حتى استدعى أركان حربه ، وأصدر أوامره إلى الجنود ، أن يقبضوا على كل العلماء الذين اشتركوا فى الثورة أما «الشيخ مهدى» فلم يجد فى هذا الإجراء شيئاً يعترض عليه ، لأن هؤلاء العلماء حين رفعوا راية العصيان على «كليبر» ، قد خالفوا أمر الله ! .. وأمر الله منذ كان يسع كل شىء ، ويفهمه بعض الناس كما يشتهون .

ولم يلبث كليبر أن يقبض على الشيخ « السادات » — ولقد أوصاه «مراد بك» أن يقتله ؛ و « مراد بك » لا ينسى كيف أغاظ له الشيخ ، يوم أن هجم الفرنسيون على القاهرة ، ولكن «كليبر» نفسه لم يكن فى حاجة إلى من يذكره «بالشيخ» .. فقد كان من رأيه أن يقتل منذ ثورة القاهرة الأولى غير أن نابليون لم يوافق . . فسيظل دمه فى عنق الجيش الفرنسى إلى آخر الزمان ، ولن يسكت الشعب عن الثأر أبداً ..

على أن «كليبر» اعتقل «الشيخ السادات» وألقاه فى كهف سحيق بالقلعة ، يشبه كهوف الباستيل .. غير أن الذين حطموا الباستيل بالأمس قد شاءوا أن يقيموا للشعب الفرنسى نفسه ولغيره من شعوب الأرض « باستيلا » جديداً فى كل مكان !



وانهال الجنود على « الشيخ السادات » بالضرب حتى لقد كان يفقد الشعور من ألم الضرب .. ولم يجد أحد من العلماء المتعاونين فى هذا كله ما يخالف أمر الله .. لقد كانوا يناشدون الناس أن يخلدوا إلى الهدوء والسكينة ، وألا يوقظوا الفتنة النائمة .. فماذا يريد العلماء بعد ؟ . إن الناس ليهدأون ، وكليبر يحكم آمناً الفتنة ، وقد استقر عرشه على الجماجم والاطلال .. وفرض على القاهرة غرامات فادحة ، ودفع تجار أثرياء كالسيد المحروقى أكثر مما يملكون ، وكسب الفرنسيون كثيراً من هذه الغرامات — والشيخ المهدى وغيره من العلماء نصيب مما يكسبون !

وبينما كان الشيخ المهدى يكدس الذهب كيساً فوق كيس ، كان الجنود الفرنسيون يغدون على السادات فيضربونه ، فإذا أفاق جروه إلى داره ، حتى إذا اعتقلوا معه زوجته عادوا يضربونه ، ، حتى ليسقط من الإعياء ، والزوجة تصرخ وتخمش وجهها .. والجنود يتضاحكون .. والطيبون من العلماء يسألون الله أن يعفوا عن روحه الخاطئة ، وعن روح غيره من العلماء ، الذين ضلوا الطريق فقاوموا الفرنسيين .

ولم يطل عذاب «الشيخ السادات» فقد بدأت الفتنة تتحرك ، وأخذت الأنقاض فى دروب القاهرة تهمهم بالحنق الذى يمسكه الرعب والجزع !

وأفرج عنه .. وأخذ كليبر يرسم المشروعات الواسعة لمصر .. بعد أن اطمأن به المقام ، وخيل إليه أنه مقيم بمصر إلى آخر الزمان ، فقد أخلد الناس إلى السكينة والهدوء ... ومضى الناس يحملون حياتهم فى إذعان وصبر ..

ولم يكن فى القاهرة كلها إذ ذاك رجل أو امرأة يستطيع أن يرفع صوته بالشكوى ، فأفواه القبور والسجون فاغرة ، تتلقف من يجاهر

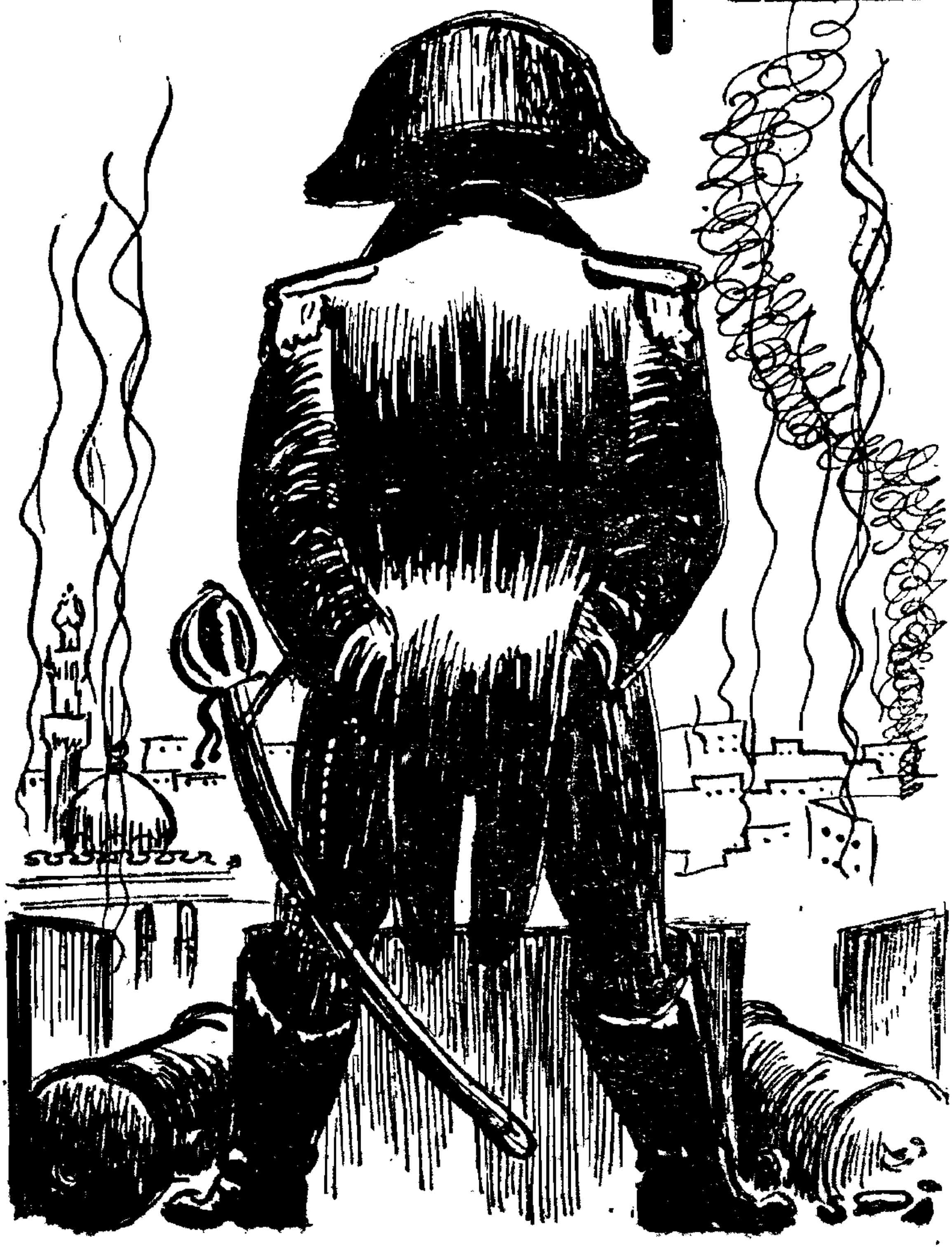
بالعصيان .. ومضى كليبر يحلم بمستقبل زاهر فى مصر .. ولكنه وفى هذه اللحظة بالذات سقط كليبر .. اغتاله سليمان الحلبي فى حديقة قصر القيادة العامة بالأزبكية !

أدفع كليبر رأسه ثمنا لاضطهاد شعب بأسره ؟ أدفعه ثمناً لتعذيب الشيخ السادات ! ..

ربما ... غير أن العلماء المتعاونين إذ ذاك ، لم يعودوا يتحدثون عن الهدوء والسكينة وعن أمر الله



في الأغلال



« اللعنة على المحتل ! . . ليدو الرصاص تحت نوافذه
على الدوام ، فليـزق الرعب بدنه ، فلتسكن كل أيامه
جحيما لا يطاق ! . .
« أسلحة ؟ . . فلنغتصب الأسلحة من العدو ! . .
هيا أيها الرماة الأحرار . . . طهروا أرض الوطن من
الخطوات المدنسة ، وانقضوا باللعنات على المحتل ! »
« اراجون »

دق الأرض بقدميه فى غضب هائل وهو يصيح : « أن شرف الجمهورية فى خطر . . ! »

وحاول الرجال الذين لوح الذعر والتعب وجوههم الحمراء أن يعرفوا ماذا بعد . . غير أن قائدهم العظيم « كليبر » ظل يمشى فى الغرفة صامتا . .

كان يضطرم حنقا ، وبدنه الفارع يتلوى ويرتعش بسخط مخيف وساد المكان صمت متوتر فلم يعد أحد يسمع شيئا غير الانفاس واللهثات !

وفجأة انطلق صوت أحد الرجال :

ـــ فلنحرق هذه المدينة يا سيدى الجنرال !

والتفت اليه « كليبر » بازدراء عميق يحمل كل مرارة حيرته المعذبة . فالإنسانية فى تلك الأيام من أواخر القرن الثامن عشر كانت تشمئز من قتل الآمنين الذين يرفعون رؤوسهم الحرة فى وجه العدوان . وكان المعتدون أنفسهم يرون فى هذا التخريب وحشية لا تليق بشرفهم كعسكريين وفرسان.

ولم يجب « كليبر » بكلمة وظل ينظر إلى عينى الرجل الذى دهمه الخجل فأخذ يفتح فمه وعينيه فى ندم أبله . .

وعاد « كليبر » يمشى مثقل الرأس وهو ينقل نظراته الخاطفة بين وجوه الرجال . . ثم ترك رجاله ينظرون إلى ظهره ، وأخذ هو يتأمل هذه المدينة التى تستلقى أمامه بكل جلال القدم ، هادئة ، راسخة ، على الرغم من كل شىء ، كأنما هى تسخر مما يمر بها من أحداث !

إن الحياة لتمضى بها محملة بذكريات تاريخ طويل، متطلعة إلى أمل عريض مبهم، وهى تغلى، وتضطرب، وتحتدم، وتضحك.. وكأنها تنام ملء الجفون.!

وتهامس الرجال لبعض الوقت ثم انطلق من بينهم دعاء صارم :

فلنقبض على كل الرجال .

والتفت «كليبر» بنصف وجهه الذى أطفأ الشحوب نضرته، وقال فى صوت حزين مذعن :

كل الرجال ؟ ؟ لا ياسادة . . لا !

لقد كان يعلم أكثر من أى رجل آخر ، أية مدينة هذه . !

أنها ماتزال تحتفظ فى عروقها بحرارة دماء الاسكندر، وبكل بسالته . وإنها تموت وتحيا ويجللها غبار النسيان، ولكنها لاتفقد هذه الحرارة أبداً ! وكأن الحضارات قد خلفت لهذه المدينة تراثاً ضخماً ما يزال يرسب إلى اليوم فى النخاع من بدن كل رجل ، وامرأة ، وغلام ، ليلهب منهم — عند اللزوم — الصلف والكبرياء والعزيمة التى لاتقاوم . !

وهمس «كليبر» مرة أخرى فى إذعان حزين :

كل الرجال ؟ لا . . لا ياسادة ! إنه يعرف أى رجال هؤلاء . . . أيضا يعرفون ! .

لقد وقفوا منذ حين بصدورهم العارية ، حفاة ، مهلهلين ، وفى أيديهم العصى ، والبنادق ، والفؤوس والسيوف والخناجر والسكاكين وقطع الحديد . والأحجار ، ليقاوموا بهذا الخليط العجيب من الآلات . وحتى بالأيدى — غزو الحملة الفرنسية لم تروع المدينة من المدافع التى أرهبت الدنيا وراء البحر الأبيض ، واندفع كل أهلها إلى جحيم المعركة حتى النساء .

وكانت جبهته تحمل الدليل المؤلم على أن هذه المدينة التى تحرس الشاطىء الأفريقى، ليست كالأخريات .. فقد أوشكت أن تلعب بمصيره الذى لم يهتز

فى معركة أخرى من قبل ، والمعجزة وحدها هى التى أنقذته من الموت !

والجميع يعرفون أن نسوة فى المدينة قذفن القائد الباسل «مينو» بحجر ضخم فهوى من أعلى السور يتلوى من الألم وضلوعه تتمزق !

وفى معركة الاسكندرية أيضا مات الصديق الكريم الجنرال «ماس» بعد أن كسب الفخار للجمهورية فى ميادين أخرى من قبل . وقتل ثلاثمائة آخرون من صفوة الضباط والجنود ، ولم يستطع «بونابرت» أن يواجه حكومته بالحقيقة فزعم أنهم ثلاثون ! .

والحقيقة أن الاسكندرية أصابت ــ فى الصميم ــ سمعة الجيش الفرنسى الذى ترتعد منه كل مدن العالم بلا استثناء ! .

ماذا ؟ لقد أوشك «بونابرت» نفسه أن يموت !

* * *

فقد هبط الجنود إلى البر بعد أن خيل إليهم أن كل شىء هادىء فى المدينة . . لم يكن فى الطرقات غير قرع الأحذية الثقيلة وكأن أهل المدينة قد هجروها . وأغلقوا الدور . . وفجأة انهمر من النوافذ طوفان من الرصاص . . وكان نابليون يمر فى حارة ضيقة لاتكاد تتسع لشخصين ومن ورائه حرسه ، والنار تنصب فى عنف من إحدى النوافذ . . وسقط بعض الحراس .. وأطلق نابليون الرصاص على النافذة ، وتبعه الحرس . وبعد كفاح عنيف قصير تحطم باب المنزل ووجد الحراس رجلا وامرأة ينزفان دماً ، وهما يحاولان إلقاء آنية من الحديد الثقيل «الهون» على رأس «نابليون» ولكن رصاص الحرس أفسد المحاولة . وهكذا استسلما ولكن للموت وحده ، ونجا «بونابرت» ! .

إن «كليبر» ــ كفارس ــ يحتفظ فى أعماقه بالإكبار لهذه المدينة الرائعة البطولة ! . وهو بعد حائر لايدرى على التحقيق مايجب ان يكون ! أيقبض على كل الرجال ؟ . . فسيبقى النساء ، وأنهن ليحاربن بأعنف

بما يحارب الصناديد فى الجيوش المدربة . . ولو قبض على النساء فهناك الصبيان . وهم أيضا يحملون السلاح ويحاربون بالطوب والأظفار او لو قبض على الأطفال ، فمن يدرى ؟ ! .

ربما تفجرت بالقذائف نفوس بشرية أخرى من أغوار هذه الصحراء التى تنبسط وراء المدينة بالخفاء والرعب والاسرار ! .

وتحسس « كليبر » جبهته المثخنة بالجراح ، وتنهد ! . ليت « نابليون » لم يتركه فى الاسكندرية إشفاقاً عليه ! .

إنه يعانى متاعب لا يحتملها حاكم عسكرى ! . . فالناس فى الاسكندرية لايتعاملون — على أى نحو — مع الجيش المحتل . . وهو يتعذب فى كل نهار وليل ليحصل لجنوده على المال والطعام والماء . .

وعلى الرغم من أن « بونابرت » قد عقد مع الزعماء — الذين غلبوا على أمرهم — معاهدة شرف وصداقة وتعاون ، فما برح الناس ينظرون إلى الجيش المحتل كجيش محتل غاصب ، ولا شيء بعد . لم ينخدع الناس بما أذيع عليهم من أن الفرنسيين أقبلوا ليطهروا الأرض من طغيان الأمراء وفساد دولتهم . .

فمصر تريد أن تطهر الأرض حقاً . . ولكن من البلاء المقيم والبلاء الزاحف جميعاً . .

والشعب لايعرف المجاملة ، فهو يشهر العداء واضحاً صارما باترا . . و « كليبر » يصطلى من عداء الناس الذين قرروا أن يقاطعوا الجيش ، فمنعوا عنه الطعام والماء وحرموا التعامل معه ، وشرعوا يقتلون من يكسب المال بالاتجار معه ، مصرياً كان أم أجنبياً من المقيمين فى أرض مصر ! .

والجيش يتذمر ويتوجع ، ويتمنى جنوده أن يعودوا بسلام إلى وطنهم الحبيب ليمارسوا فى فرنسا حياة الحرية والإخاء والمساواة ، بعيدا عن

فظائع الحرب، وخرافات القادة والحاكمين التى يسمونها «المجد والبطولة والفخار».

وفى ذلك اليوم من يوليو سنة ١٧٩٨ تلق «كليبر» صفعتين قاسيتين، فأخذ يضطرم من الحنق والحيرة.. فقد عثر بعض رجاله على جثة بحار فرنسى فى عرض الطريق، وفى نفس الوقت حملت أمواج البحر جثة جندى موثق بالحبال.

لقد أعلن الفرنسيون أكثر من مرة أنهم لم يدخلوا مصر ليفسدوا فى الأرض ويسفكوا فيها الدماء. وقد ساروا بين الناس أطيب السيرة عسى أن تنشأ صلات ومودات. فلماذا إذن يقتل المصريون رجلين فرنسيين؟!

وفى عصبية بالغة صاح كليبر فى أعوانه:

ـ تكلموا يا سادة.. قولوا شيئا على الأقل. أنت يا «برويس» يا من تحسن سياسة الريح والأمواج وتسيطر على الحيتان فى مجاهل الماء. أليس لك رأى؟! وأنت يا صديق «مانسكور». أنك لم تشهد منى مثل هذه الحيرة فى أيامنا القديمة الحرجه.. هل أفلس تفكيرك؟! تكلم!. تكلم أنت يا كريتان.. وأنت، وأنت.. ماذا ترون.. تكلموا يا سادة قولوا شيئا!!

فقال كريتان فى هدوء مفكر: «إنه السيد كريم حاكم المدينة. أنه رجل واسع الحيلة شديد الذكاء.. مخيف!»

فقال كليبر: «سأناقشه الحساب..»

وأضاف مانسكور: «أرى أن تدعوا الأعيان للتحقيق معهم»..

وقال برويس: «جنرال! لا تنس القاضى الشرعى. ولتكن حليما معه رحيما به.. إنك عن طريق الدين وحده تستطيع أن تسيطر!.. هذه هى حكمة بونابرت، وحكمتك أنت أيضا..»

فصاح «كليبر» كمن وجد الحل أخيراً: «هذا حقيق.. حقيق يا سادة سأدعوهم

جميعاً .. الحاكم والقاضى والأعيان .. سأناقشهم الحساب .. الحساب ! »

وبعد لحظات كانوا مجتمعين عند « كليبر » . ودارت مناقشات طويلة حادة ختمها « كليبر » بقراره الحاسم : أنه يعتقل الأعيان كرهائن حتى يقبض حاكم المدينة على المسئولين عن حادثى القتل . وألا فسيقتل اثنين من الأعيان يختاران بالاقتراع . . !

وقال « السيد كريم » إن المسئولين عن هذا الحادث هم أهل الأسكندرية بأسرهم . . فليقبض إذن على كل الرجال وكل النساء !. . على أن المسئول الأول هو كليبر » نفسه ، لأنه لم يحسن الإشراف على جنوده الذين انطلقوا يستفزون مشاعر الناس !

ودهش « كليبر » لما يسمع من « السيد كريم » . . . وقبل أن يفرغ من دهشته علم أن الشعب يتجمع فى الخارج مطالبا برؤوس كثير من الفرنسيين

كان الناس يعلمون أن اجتماعا يعقد مع الحاكم العسكرى الفرنسى للتحقيق فى مقتل الرجلين . وحملت نسمات « يوليه » الساخنة شرارة الغضب الكامن من بيت إلى بيت وهى تزداد اشتعالا .. وخرج الجميع يحملون آلات القتال ويمدون الذخائر من الصخور وقطع الحديد والسيوف والبارود . وملأوا أفواه الدروب والحارات والشوارع في انتظار نتيجة التحقيق ، لينقضوا إذا لزم الأمر ! .

يجب الإفراج عن الأعيان ، ومنع الجنود من الاعتداء على الناس ، وتسليم الذين ارتكبوا حوادث سابقة وأفلتوا من عقاب الناس !

وليس فى مقتل رجلين إثنين شفاء لما فى الصدور .

فن بين هؤلاء « الفرنجة » الغاصبين من يعامل الناس كما لو كانوا عبيدا فى بعض عصور الرق الرومانية . . كل شيء مباح فى مزرعة الرقيق : المال والاعراض على السواء !

ما الذى يثير الحاكم العسكرى إذن ؟ فليؤدب رجاله أولا . .

لقد انطلق أحد بحارته فاغتصب خمرا من حانة ، ماطلى ة عجوز ، ثم سار فى الشارع يتطوح من السكر ، فحطم حانوت تاجر مصرى وسرق منه عدة أشياء واعتدى على صاحب الحانوت وأوشك أن يقتله ، فقتله صاحب الحانوت ! . . ماذا فى هذا ؟ !

أما الآخر فقد تسلل — وسواد الليل يترنح — إلى خدر امرأة فى مهمة خاصة ! كان خادما لضابط جميل . . جميل مافى ذلك ريب . . ربما كان يشغف النساء فى بلاده حبا ! . . على أنه قد فتن آخر الأمر بفتاة مصرية تختزن فى عينيها وجسدها كل أسرار البحر والصحراء والآلهة !

* * *

وفى تلك الأيام لم يكن فى الاسكندرية نساء مصريات يرحن بالمحتلين ولم يكن ذلك الزمان قد عرف بعد امرأة واحدة فى الأسكندرية أو فى مصر كلها تستطيع أن تراقص ضابطا أجنبيا ، أو تشرب معه الخمر ، أو حتى تضاحكه مهما تكن مكانته أو فتنته . . كان هذا ـ وأيسر منه ـ هو العار كل العار عند نساء ذلك الزمان !

وحتى اللواتى طاردتهن اللعنة كن يأنفن من الترفيه على الجنود والضباط المحتلين . . فهم أعداء ، قبل أن يكونوا رجالا . . ؟ ولقد تموت إحدى الشريدات من الجوع ، ومع ذلك ترفض فى أباء رائع عطاء أجنبياً .

وكان الفرنسيون يعرفون هذا جيداً ، ويدركون أن الأمر دائماً — حتى عند نساء الطريق — يتعلق بالشرف المصرى !

غير أن فتاة مصرية دارت رأسها بفتنة الشاب الجميل ، وكان الجوع يخرس منها كل صوت ، وللجوع أحياناً سلطان يتحدى الفضيلة ويسخر بالمعتقدات . .

وشعر الضابط بتأثير جماله على هذه الفتاة من أنصاف العذاري .

وكان يعرف أن المصريات يستجبن لمغازلة الفرنسيين بضربة «قبقاب» على الرأس ! . .

فأرسل خادمه ليستدعى الفتاة . . . وبينما كان الخادم يتفاهم معها فى المكان المخصص للحريم شاهدته امرأة ، فصرخت وتجمع النساء ، وضربن الفتاة حتى ماتت .. أما الجندى فقد أغمى عليه من أول ضربة «قبقاب» . فأوثقته النسوة بالحبال ، وحملنه إلى البحر وألقينه فيه ، يبحث لسيده الجميل فى الأعماق عن متاع آخر . . ليس من مصر على أية حال !

وهكذا مات غرقا .. !

لقد ظفر الناس بالمعتدين فى المرتين ولكنهم مازالوا يذكرون حوادث أخرى هرب فيها الجناة ..

فقد هاجم بعض البحارة بستانا لا حارس له فاغتصبوا ثماره، وأتلفوه ..

وفى طريق مقفر اختطف أحد الجنود جرة ماء من فتاة متفتحة فى الرابعة عشرة ، واختطف منها فى نفس الوقت قبلة شرهة ، وشرعت الفتاة أظفارها لتنشبها فى رقبته وهى تصرخ ، ولكنها لم تكد تجد له رقبة .. فقد لاذ بالفرار وهو يحمل جرة الماء !

وقد شهدت أماكن الحريم جنوداً وضباطاً كثيرين هربوا ، وهم يصرخون من وقوع القباقيب على رؤوسهم .. اختفوا — لسوء الحظ — وهم أحياء !

إن الناس فى الشوارع يتذاكرون هذه القصص فى سخط يخالطه النذير، وسيد كريم يذكرها « لكليبر » .. وهو ينتظر وهم ينتظرون ..

* * *

لا نوم بعد . . !

« كليبر » مصمم على أن يسلم إليه الجناة المصريون . . والشعب فى

الطرقات مصمم هو الآخر على أن يسلم إليه الأعيان ، والجناة الفرنسيون الذين أفلتوا . . ومصمم أكثر من أى شىء على أن يتعهد «كليبر» بعقاب من يعتدى على الناس فيما يقبل من الأيام . . حتى يقضى الشعب أمراً كان مفعولا !

وفهم «كليبر» أنه لو سكب قطرة واحدة من الدم الدم المصرى فإن الاسكندرية ستعلن الثورة !

واستمر الموقف على هذا التوتر الرهيب ثلاثة أيام سوياً وأقبل العربان من صحراء البحيرة فى اليوم الرابع بالخيل والإبل والسلاح . . ولم تبق إلا كلمة . . كلمة واحدة ، وتشتعل ! . .

إن «كليبر» ليعلم أن هذه المدينة ليست كالمدن ، ولو أنها اشتعلت فسيخوض معركة مريرة غير مأمونة ، بجنود مرهقين يهزهم الحنين إلى الوطن وأحلام حياة آمنة مطمئنة تحت سماء فرنسا .. !

وأخيراً .. رأى «كليبر» أن الحيلة وحدها هى التى ستسعفه، ليحفظ شرف الجمهورية ، وهيبة الجيش ، ويتفادى فى الوقت نفسه ثورة الاسكندرية .

فأمر بإجراء تحقيق عسكرى دقيق ليحدد مسئولية رجاله ..

وبعد قليل أخطر القاضى الشرعى أن التحقيق العسكرى أثبت أن القتيلين قد بدءا بالعدوان . وهو كحاكم عسكرى مقتنع بأن القتل جزاء عادل لهما ، فالجروح قصاص ما فى ذلك ريب . غير أن ولى الأمر لا أحد غيره هو الذى يجب أن يتولى القصاص . . فإن تولى أحد غيره أمر القصاص فقد يجب على القاضى الشرعى أن يبيح دمه ويحكم عليه بالإعدام .. وفى مقابل هذا سيطلق سراح الأعيان . . . وهو مستعد لأن يعاقب المعتدين الذين يطالب الشعب برؤوسهم لو أمكن تحديد أسمائهم ، بيد أن

أحداً لن يستطيع هذا ! . . وعلى أية حال فسينذر جنوده بأشد العقاب لو تكرر منهم العدوان ..! واقتنع القاضى الشرعى، فأصدر حكماً ــ غيابياً ــ بإعدام التاجر الذى قتل البحار . ولكن التاجر هرب . . أما قاتلات الجندى الوسيط فلم يعاقبن لصعوبة التعرف عليهن !

ورضى الناس بما أرضى القاضى .. ألم يتبع « كليبر » حكمة « نابليون » بأن يكسب رجال الدين ليكسب الشعب ؟ !

وأفرج عن الأعيان فاستقبلهم الشعب بالهتاف والتهليل ثم انصرف إلى حياته اليومية من جديد . غير أن « كليبر » مع هذا لم يكسب الشعب !

لقد اضطرته قوة الشعب أن يأخذ جنوده بالعنف فأصدر إليهم منشوراً ــ أذاع ترجمته على الشعب عن طريق القاضى الشرعى ــ يعلن فيه أن الإعدام سيكون عقاب كل فرنسى يدخل المكان المخصص للنساء فى بيوت المسلمين وكل من يتسلق بيتاً من البيوت ، أو يسرق ، أو ينتهك شعائر الإسلام . أو يحاول صيد الحمام داخل المدينة . . !

وأذعن الجنود لإنذار القائد فارتدعوا ... ولكن « كليبر » مع هذا لم يكسب الشعب ! ولأن هذا الشعب أمام هذه الترضية فقد ظل يعتبر الجنود الفرنسيين ، محتلين غاصبين . .

● فلم تكد إحدى كتائب الجيش تمضى فى رحلة خارج الاسكندرية لتؤمن المواصلات وطرق التموين ، حتى تأكد « كليبر » أنه لن يستطيع أن يكسب الشعب

ولم تجد الكتيبة فى الاسكندرية قربة ماء واحدة ، ولم تجد دابة تستعين بها على قطع الصحراء ، فقد اختفت الجمال فجأة . ولم تجد الحملة مصرياً يؤجر دابة ولو بأضعاف ثمنها !

وما أوغلت الكتيبة فى الصحراء حتى طالعتها بالرعب من جميع أقطارها ! فالعرب يهاجمون على طول الطريق تحت الشمس المحرقة ، والقرى تغلق الأبواب فى وجه الغزاة وتصب عليهم الويلات ! وهكذا لا تستطيع الحملة أن تظفر بلقمة من زاد أو قطرة ماء . . ! وينتهى بها المطاف إلى « دمنهور » لتجد ستة آلاف نفس مصرية تحمل السلاح !

وتعود الكتيبة مضعضعة القوى ، تئن ، وتلهث ، وتلعن . . . وفى الأعماق من رجل صوت يقول :

ـــ أى شىء هذا الذى يدوخ أعظم جيش فى العالم ، وهو بعد فقير مريض مهزول ، لا يكاد يقوى على حمل الأغلال .

لقد نسى هؤلاء الجنود أن شعبهم الفرنسى قد صنع معجزته . . وأن الشعوب كلها تستطيع دائماً أن تصنع المعجزات

ذلك أن الشعوب لا تغلب على أمرها أبداً ، ما دامت مؤمنة بحقها فى الحرية . . وفى الحياة .




الثورة لن تموت

ألقى الورقة على الأرض ، وسحقها بحذائه وهو يصيح : الخونة . . ! الخونة .. ! لقد قبضوا الثمن .. ولكن الشعب يعرف أعداءه ، ولن ينسى لهم هذا أبداً ! »

وسكت الجميع لحظة وهم ينظرون إلى وجه المنشنج . . وكأنما تعلقت المصائر بشفتيه . . ولكنه لم يقل شيئاً . .

وقال رجل : «هذا هو البيان الثانى الذى تصدره هذه الحفنة من العلماء الخارجين على إجماع الشعب .. هذا كثير .. كثير جداً يا سيدنا النقيب!»

ولم يجب النقيب ! . .

ولكن أزهرياً شاباً أجاب : « وقد يصدرون البيان الثالث والرابع غداً أو بعد غد ، وشيوخنا الأجلاء يتحدثون عن صلاح نابليون وتقواه وفهمه للدين ! من يدرى ؟ ربما جعلوه أيضاً شيخاً للإسلام و ... »

وارتفع صوت عجوز من أقصى المكان: «والشيخ السادات معتقل ،ومئات الرؤوس المصرية تسقط برصاص الجيش المحتل ! إنه الذهب يا بنى ! لقد أعفاهم نابليون من الضرائب،فهو ينال من البركات بقدر ما يمنح من المنفعة إنهم يباركون الدماء والمظالم والفساد والطغيان . . هؤلاء الخارجون عن أمر الله .. وهم مع ذلك هم علماء الدين ! »

فأجابه صوت فتى ساخر : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » .

فقال العجوز متألما : « أتعتقد أن رجلا نفذ نور العلم إلى قلبه يستطيع أن يطالب المصريين بالاستكانة ، إلا إذا كانت الكلمات التى تتراكم فى نفسه أقوى من كل نور آخر ؟! إن هؤلاء ليسوا من عباده العلماء ، فالعلماء حقا

هم الذين يقودون النضال اليوم: أستاذنا النقيب، وشيخنا السادات والأحد عشر عالما الذين قتلهم الفرنسيون بالأمس! .. إن الأزهر يا بنى لن يتخلى عن دوره التاريخى أبداً .. وسيظل يحمل المشعل وينفذ أمر الله فى وجه المعتدين والخونة جميعاً!»

ثم نظر الجميع إلى «النقيب» وكان ما يزال صامتاً شارداً، وحذاؤه يهتز فوق الورقة الملقاة على الأرض .. ولم يرفع (النقيب) رأسه عن الورقة التى اختلطت بوحل الحذاء .. وظل يقول كأنما يناجى نفسه: (إنهم يخدمون كل طاغية يدفع الثمن .. وهذا كان شأنهم مع الأمراء! إنهم يتهمون الثورة بأن يداً أجنبية تحركها .. حسناً! .. فهى يد الله، هى يد الشعب .. وهى يد أجنبية عنهم حقاً! .. وستخلص هذه اليد مصر المسكينة بضربة واحدة من طغيان الفرنسيين والأمراء لهم)

ثم رفع (النقيب السيد عمر مكرم) رأسه وأخذ ينظر إلى وجوه الجميع وكأنما أشرق وجهه العابس بنور عجيب .. ثم قال: (لم نخسر شيئاً يا أصدقائى ألم يمت المالطى الخائن الذى كان يبطش بنا وهو فى خدمة الألفى، وعاد يبطش بنا كعبد للفرنسيين؟!)

فأجابه الأزهرى الشاب: (نعم .. نعم ياسيدنا النقيب .. آه لو كنت معنا منذ أيام فى بركة الفيل .. ولكنك كنت تقود ثورة الغورية وكنا نحن بلا قائد .. لقد أقبل يفسح الطريق على أجسادنا لسيده الجنرال (ديبوى) وجنده ..

وكان يطلق رصاصه علينا بوحشيته المعروفة .. إن المالطى وكيل المحافظ كان يطمع، على ما يبدو، فى منصب المحافظ. ولكننا انقضضنا عليه .. النساء من فوق المرتفعات يقذفن بالحجارة وقطع النحاس .. والرجال بالحراب والخناجر والعصى. وفى لحظات كان هو على الأرض مضرجا

بدمائة البخسة ، ومن بعده سيدة الجنرال وعشرات من الجنود ! ؟

فقاطعه النقيب متحمساً : (وعشرات من الخونة الذين لا يملكون فى هذا الوطن إلا المال ، والذين يبيعون كل شىء بالمال ، ويجرون وراء كل من يمنح المال !..

(ولكن اسمعوا يا أصدقائى : (إن الثورة لم تنته وإن هدأت لبعض الوقت .. لا أمن للمحتل هنا . . أليست لكم قرى ؟ ! حاربوه إذن فى كل قرية ، وفى كل شبر من الأرض ! .. لن يغلبنا المحتـل على أمرنا أبداً . . زاد سيطر على القاهرة الآن كما سيطر على الاسكندرية من قبل . . ولكن لتصنع القاهرة ، ولتصنع كل قرية فى مصر كما صنعت الاسكندرية . . لازد ولا ماء للمحتلين .. أذكروا ما حدث فى الاسكندرية دائماً : المرأة التى تحادث جندياً من المحتلين يجب أن تقتل . الرجل الذى يبيع الزاد لهم يجب أن تحرق تجارته . وليهلك غرقا من حمل قطرة ماء إلى أعداء الوطن ! إن لقمة الزاد أو قطرة الماء تمنحهم القوة ليستمروا فى مظالمهم وعدوانهم ! أتفهمون؟! أما هذه القلة القليلة من العلماء الذين يحاولون ان يضللوا الشعب فما يضلون إلا أنفسهم .. إنهم لا يعرفون أن ما عند الشعب خير وأبقى . . وأن يوم حسابهم قريب !)

وعصفت رياح نوفمبر فى خارج بيت النقيب ، تحمل أنين المحزونين ، وزفرات الغضب ، ودموعها تسيل على مئات الشهداء .

• • •

وطرق الباب قادم غريب ..

وأمسك الجميع أنفاسهم .. ولكن «النقيب» تقدم بمصباحه إلى الباب بعد أن أمر ضيوفه أن يختفوا فى بعض سراديب البيت . .

وفتح الباب .. فاندفع منه رجل يلهث ! .

وهمس فى أذن «النقيب» بكلمات .. فقال له النقيب فى رسوخ: «ليحضر معهم بعض رجال. وهمس فى إذن الفتى الأزهرى، وفى أذن الشيخ العجوز وانصرف الجميع!

* * *

فى الصباح كانت السفن الفرنسية تنحدر مع ماء النيل إلى فرع رشيد؛ ولم يخف الكابتن «جوليان» عجبه .. وهو يرى الرجال يعملون بهمة خارقة.

فقد كان يجب أن يمضى بسفنه منذ أيام إلى الاسكندرية يحمل رسالة للقوة المحتلة هناك .. وكان فى حاجة إلى ملاحين مصريين يجرون الشراع! ولقد أنفق كثيراً من الجهد، وبذل كثيراً جداً من المال، ولكن رجلا واحداً من أهل بولاق لم يقبل أن يخدم السفن الفرنسية.. والرجال القلائل الذين حشدتهم السلطات الفرنسية، وحشدت لهم الشيوخ ليعظوهم بالطاعة والامتثال .. هؤلاء الرجال أمسكوا بلحى الرجال فرغوها فى الأرض، ثم وثبوا – بلاسلاح – على الجنود الفرنسيين المسلحين يريدون تمزيقهم بالأظافر!..

لقد يئس «الكابتن جوليان» من العثور على ملاحين مصريين ولكنه فجأة استقبل عشرات من الرجال يقبلون العمل معه باسمين .. بأى أجر..

وكانت شمس نوفمبر الدافئة تملأ الأفق الرحيب الساكن، والجنود الفرنسيون يتطلعون إلى الأرض الجرداء على الشاطئين، ويتهامسون فيما بينهم بأغنيات من فرنسا، ويتذاكرون ثورتهم الكبرى التى صنعوها وحطموا بها طغيان «البوربون» ليقفز على الاشلاء رجل «كنابليون» يجعل بدل الاخاء والحرية والمساواة والسلام: هذه الحروب التى لا تكاد تنتهى فى القارة وعبر القارة!

وأخذوا ينظرون إلى الملاحين أصحاب الأجساد البرونزية ... كانوا

هم أيضاً يتناشدون بأغنية حزينة من أغاني مصر . . وأحس الجميع لبعض الوقت أن ثمة أشياء مشتركة بينهم . . . أن شيئاً مجهولا عميقاً يجمعهم ! ولكن الملاحين شعروا أن حائلا ما يقف بينهم وبين هؤلاء الفرنسيين ، وشعر الجنود الفرنسيون هم أيضاً أن جداراً غليظاً غير إنساني يعزلهم عن هذه النفوس الإنسانية . لعلة حائط أقامة نابليون ، وأحلام السيادة ! . .

وفى الحق أنهم يتمنون لو حطموا هذا الجدار الغليظ ! . .

وتلاقت العيون لبعض الوقت . . وأومضت بالنور . . لماذا يقتل هذا الرجل الفرنسى ذلك الرجل المصرى . . لماذا أقبلوا من آخر الدنيا إلى أرض لا يعرفونها من قبل ليملأوها بدماء أهلها . . . ترنحت الرؤوس برقة الانسام التى تطرب المصرى والفرنسى على السواء . . . وتحركت الأيدى تمسح العرق الذى يسيل من كل الأجساد : الفرنسية والمصرية على السواء !

وفجأة امتلأت الأرض الجرداء بعديد من الناس من أهل القرى . . وعلى جانبى النيل وقف الأطفال ينظرون إلى الرجال الذين أقبلوا ليقتلوا آباءهم ، ووقفت النساء يحدقن فى الذين انحدروا من وراء البحر ليجعلوهن أرامل ! . . . وتطلع الرجال إلى هؤلاء الجنود الذين قتلوا أخوة لهم فى القاهرة وفى الاسكندرية ، والذين سيقتلونهم هم أيضاً !

ونظر الكابتن « جوليان » إلى جموع الفلاحين على الشاطىء فصاح برجاله : « اطلقوا النار ! . . » وتلكأ الجنود لحظة . . . لماذا يطلقون النار ؟ . . . لقد أطلقوا النار أكثر مما ينبغى فى كل مكان . . . وانهم ليتقززون اليوم من كثرة ما أسالوا من الدماء البشرية . . . أتراهم قد أقاموا الحرية هناك ليقتلوا الناس بلا حساب ، فى بلاد بعيدة .

وأخذ الجنود ينظرون إلى الأطفال الصغار الذين يشيرون إلى البنادق فى « زقزقة » مروعة . . لقد تركوا فى أرض الوطن أطفالا كهؤلاء يروعهم منظر السلاح الذى يمزق جسد الإنسان .

* * *

وشاهد « الكابتن » جنوده ينظرون إلى الناس شاردين فصرخ فى غضب : « اطلقوا النار . . من يتأخر سيقتل »

وأطلق الجنود النار على الكتل البشرية المكدسة على الشاطىء وإذ ذاك توقف الملاحون المصريون ودس كل رجل يده فى جيبه ليخرج قطعة من سلاح : بندقية أو سيفاً أو خنجراً . .

وسدد أحد البحارة بندقيته إلى « جوليان » . . فخر صريعاً . . . ثم جنحوا بالسفينة إلى الشاطىء . . وعلى الشاطىء دارت المعركة . . وهجم الفلاحون بالفؤوس والأحجار . . والجنود يطلقون الرصاص . .

* * *

وحملت الأنباء إلى نابليون وإلى السيد عمر مكرم — فقال نابليون فى غضب : « احرقوا هذه القرية . . . سأبنى أمبراطوريتى هنا وعلى أنقاض هذا الشعب سأعرف كيف أخضع هذه البلد . . سأعرف » وعند ما كان « نابليون » يقول هـــذا كانت انتفاضات الناس فى القرى تجيب بلا ضوضاء : « إن الثورة لن تموت »

أما السيد عمر مكرم فقد أطرق قليلا يترحم على الشهداء . . وقلب كفيه ، وارتفع وجهه إلى السماء مشرقا بالنور مبللا بالدمع وهو يقول : « اللهم أن هذا هو ما أردت . . اللهم أننا لم نرد هذه الدماء . . اللهم أنك أنت الحق وأنت السلام . . وما أردنا إلا الحق وما نريد إلا السلام . .

« اللهم إننا لم نرد هذه الدماء ولكنهم يسرقون أقواتنا ويحتلون أرضنا ويغتصبون ديارنا ويفسدون ضمائر الضعفاء منا . . اللهم لا تعاقبنا بما فعل السفهاء ، واعف عنا . . اللهم على اسمك نضرب ، وبك نهتدى حتى نطهر الأرض الحرام . . اللهم إننا لم نرد هذه الدماء ، وما أردنا إلا الحق »

. ! .

ودوت فى أعماق الشيخ أنغام مقدسة ، وأصبح لانعكاس الشموع على وجهه المخضل بحبات الدموع روعة القديسين فى الزمان القديم . .

ومسح الشيخ وجهه . .

والشعب يضرب . . ثم يضرب . .



حدث ذات ليلة



لجأة . انتفض واقفا ، وتركها تنظر إليه فى رعب وهو يلوح بسيفه ، ويصرخ فى وجه الفارس الذى كان منحنيا أمامه فى خضوع ورجفة :

ولم تكد الجارية الشائقة تدخل إلى مستقرها مع حريم القصر حتى كان صوت « البرديسى بك » يزلزل الجدران الشاهقة الموشاة بالذهب .

إن « سيد القصر » غاضب منذ اليوم كما لم يغضب من قبل أبداً .

والتصقت الجوارى والمحظيات بالأبواب يستمعن ، وقلوبهم تدق من خشية المجهول الذى يوشك أن ينقض . وبدأت إحداهن تجمع مجوهراتها لاهثة بينما أخذت الأخريات يصارعن الذعر الذى يجتاحهن . ودوى فى كل أذن صياح سيد القصر : « يجب أن يدفعوا الضريبة. بأية وسيلة. ولتكن الضريبة لمدة ثلاثة أعوام لا لعام واحد ، وسأرى مايصنعون . إذهب . . إذهبوا . . إقطعوا لحوم هؤلاء الأوغاد . . » وقالت امرأة فى القصر : « إن هؤلاء هم الذين سيقطعون لحومنا نحن ». وأسرعت هى الأخرى تجمع من ثيابها وجواهرها . . وعلى مدى قريب من قصر « الناصرية » كان « هؤلاء الأوغاد » يملأون المساجد والطرقات . . أما النساء فقد صبغن الوجوه بالسواد وسرن يلطمن الخدود ويتطوحن كالنادبات وقد حملن قطعة من الخشب على هيئة نعش سمينها « البرديسى » . ومضى من خلفهن الغلمان وفى أيديهم الغضة قطع الحديد والحجارة والعصى . وكانوا يهتفون ويلعنون قائلين: إيش تاخدمن تفليسى يابرديسى والسيوف من وراء ذلك كله تلتمع فى أيدى الرجال بينما الطبول تقرع والأعلام تخفق . وللزحام المختلط بالعرق والتراب رنين واحتدام . .

مازالت هذه السيـــوف مطلولة بالدماء ، وأنها لتطلب اليوم دما جديداً .

على أن « البرديسى » حاكم مصر لم يكن يستطيع أن يقدر شيئا كهذا.. ، ولكنه نسى . . ومثله دائما ينسون ! ففى أعوام قلائل استطاع هؤلاء الذين يتجمعون فى الطرقات والمساجد — استطاعوا أن يصنعوا أكثر من معجزة ! طردوا « نابليون » وأرسلوه فى شراع ممزق يضطرب فى بحران أحلام الإمبراطورية ! .

وبطشوا بثلاثة من الولاة الأتراك واحداً بعد واحد . . ثم اختاروا لأول مرة فى تاريخهم — الحكومة التى تدير شئونهم ولقد ارتضوا . « البرديسى » حاكما عليهم ، وارتضوا « محمد على » شريكا له فلماذا إذن يتنكرون اليوم ؟ ! . أمن أجل الضرائب الجديدة ؟ ؟ إن الحكومة حين قررت هذه الضرائب كانت تقدر أن أهل القاهرة سيذعنون لما تأمر به .

أليست هى الحكومة التى اختارها الشعب ؟ !

غير أن التجار أغلقوا حوانيتهم وامتنعوا عن دفع الضريبة ثم مضوا يتشاكون إلى بعضهم من وطأة الغلاء وخيبة الآمال العريضة فى الحكومة التى اختاروها . . وأخذوا يتذاكرون قصصا عجيبة عن إسراف السادة وعن ترفهم المتوحش المستبد ، وعن الجوارى اللوائى يسبحن فى العطر ويلعبن بالذهب .

إن الفساد القديم لم يتغير كما ينبغى :

وانتشرت بين الناس فجأة حكايات لا تنتهى عن هذا الرجل أو ذاك من أتباع الحاكم أو أصدقائه : الاتجار بالأقوات بينما الأسعار ترتفع فى جنون ! وفى الوقت الذى تتمتع فيه طائفة قليلة جداً من أهالى القاهرة بالغنى الفاجر الفاحش إذا بالناس جميعاً يتمرغون فى الوحل والجوع والمأساة !

وهكذا تجمع الناس فى مداخل الدروب . . وانضمت جماعاتهم إلى بعضها وقد صمموا ألا يدفعوا للحاكم بعد اليوم شيئاً على الإطلاق فكفاهم ما دفعوه ، وقد آن لهم أن يأخذوا .

ولكن جباة الضرائب يغلظون للناس فيقبض الناس على بعض هؤلاء الجباة . . ويعود جباة آخرون ومعهم الفرسان ، فيثب الناس على الجباة والفرسان جميعاً كل هذا حدث فى ساعات قلائل والبرديسى بك فى مقره الباذخ بالناصرية يعب الخمر من كف جارية كالمرمر ! . .ولا تكادالأخبار تصل اليه حتى يمتلىء حنقاً . . ويفرغ من الخمر والنساء بعض الوقت ليصدر أوامره المشددة بقتل كل من يمتنع عن دفع الضريبة .

ولكن الأنباء ترد اليه من أهل القاهرة وبدأوا يقتلون جباة الضرائب فيأمر باستدعاء شريكه فى الحكم ليرى معه رأياً فى أمر هؤلاء الناس . . وشريكه فى الحكم رجل واسع الحيلة شديد الدهاء ، . أنه « محمد على » ! ولكن « البرديسى » لم يكن يستطيع أن يظفر « بمحمد على » فى تلك اللحظات ولا حتى أحد جنوده .

فقد كان « محمد على » يعرف جيداً إلى أين يمكن أن تمضى القاهرة حين تثور ولقد علمته التجربة أن الذين يذكون الغضب فى نفوس أهل مصر لا يجب أن يقاوموا هذا الغضب من بعد ، لأنهم إذن سيكونون وقوداً للنار التى لا ترحم حين تشتعل . .

وهو من أجل ذلك لم يحاول أن يقاوم مشاعر الناس . . بل على النقيض أمر جنوده أن ينضموا إلى الشعب ، وأن يعلنوا الثورة هم أيضاً على « البرديسى » استنكاراً للضريبة الجديدة التى ترهق أبناء مصر .

واختلط هو بزحام الناس حتى أصبح واحداً منهم ، والتمع سيفه مع السيوف . .

وعاد « البرديسى » يزأر فى قصر « الناصرية » ويرسل الوعيد والنكير وهمس فى أذنه شيخ عجوز أن يأخذ العبرة من « محمد على » ويذعن لإرادة الشعب ويلغى هذه الضريبة الجديدة ويصنع شيئاً عاجلا للقضاء على الغلاء ولكنه فى صلفه الثائر لطم ناصحه الشيخ ، وقال أنه يعرف أن محمد على يعمل لحساب نفسه لا لحساب هؤلاء الثائرين . . ثم أصدر أوامره إلى أمراء المماليك أن يجردوا فرسانهم ليضربوا أهل القاهرة فى البيوت . . والمساجد ، ولكن مساجد الله وبيوت الناس كانت قد خلت من الناس . وتدافعت أمواجهم البشرية الهائلة فى الشوارع منطلقة إلى مقر الحاكم .

والأنباء تصـــل إلى « البرديسى بك » كقرعات مطرقة حديدية على رأس صغير .

لقد اقتحم الناس قصور أربعة من أمراء المماليك وقتلوهم ونهبوا ديارهم وقصر « ابراهيم بك » ببركة الفيل محاصر . .

والمعركة تدور على أسوار القصر . . غير أن المهاجمين يتقدمون . .

وأخيرا هرب الطاغية الرهيب « ابرهيم بك » ناجياً برأسه ؛ عندما رأى الجموع تجتاز مدخل القصر مقبلة عليه ، .

وإذ ذاك صرخ « البرديسى بك » من فرط الهلع وأسرع ـ كمحظياته ـ متعثراً على سجاجيد القصر يبحث عما يحمله من جواهر ويلوذ بالفرار ...

ولم يعد فى كل القصور إذ ذاك رجل أو امرأة يستطيع أن يرسل ابتسامة أو يمسك صيحة الرعب . . ولم يعد أحد يفكر فى غير النجاة . . لقد ذهل كل امرىء عن أخيه ونسائه وبنيه . . . وإن قضاء الشعب ليطارد الجميع !

واستقر « البرديسى بك » فى قصر آخر بعيد . . بمصر القديمة . . ومن هناك بدأ يدير المعركة . . . وظل جنود المماليك ساعات متوالية يصبون

الدمار على القاهرة من مدافع القلعة والأزبكية .. وأهل القاهرة يتقدمون ويقتحمون النار ..

ووصلت فرقة من الثائرين إلى مصر القديمة على الرغم من كل شيء .. ولكنها لم تستطع أن تظفر « بالبرديسي » ولم يكن فى الإمكان أن تظفر به ، فقد هرب إلى حلوان ، ثم أختفى فى الصحراء إلى آخر الزمان ، حيث يصبح ويمسى جزءاً تائهاً أخرس من ظلمات النسيان .

وفجأة سكتت أصوات المدافع وارتفعت زغاريد النساء . . .

وكان الظلام يغمر القاهرة فى تلك الليلة من مارس سنة ١٨٠٤ ، غير أن السواعد التى كانت تهتز بالبنادق والسيوف منذ لحظات أخذت تخفق بالمشاعل والأضواء .

فى تلك الليلة ظلت القاهرة ترقص وتغنى على ضوء المشاعل الحمراء .. وشهدت « بركة الفيل » أولى الضحكات الخالصة الصادقة ..

وفى الصباح كان كل رجل وامرأة ينظر إلى الآخر فى إكبار .. وأمل مطمئن ..

لقد صنعوا شيئاً ذات ليلة .. وسيصنعون غداً شيئاً .. وهم يستطيعون أن يصنعوا كل شيء على الدوام !





انت ايضا معركة

إلى أين تمضى بهم حياتهم، هذه القلقة المضطربة ، المفعمة بالسأم والروع والفراغ العريض . . ؟

لماذا يعيشون ؟ . . لماذا يقفون هكذا وراء المتاريس كأشباح فارقتها الظلال ، فى انتظار المجهول الذى سينقض ، والذى لا ينهض ؟ !

أن الحرب مشتعلة منذ أمد بعيد بين أمراء القاهرة وأمراء الصعيد .. ولكن ما شأنهم هم ؟ !

لقد سخر بهم الباشا الوالى عندما أخرجهم من دورهم ليدفعوا عن القاهرة عدوان أمراء الصعيد . . أية « قاهرة » هذه التى سيدافعون عنها؟! أنها لتسخر بهم فى كل نهار وليل ، وتطحن حياتهم بلا رحمة . . أتراهم يدافعون عن أمرائها الذين جعلوا الحياة شاحبة كالموت ، خانقة كالفقر ، زرية كالعار ؟ !

وتمطى رجل من أهل « بولاق » وهو يستند إلى زميله وينظر إلى المتاريس بضيق كبير ، ثم قال : « ضحك علينا الباشا التركى ! » . . كان صوته جافا مذعنا هامسا ، وكان مطرق الرأس . وتطلعت اليه كل الوجوه التى لفحتها شمس الصيف ، وأشرق على السمرة القاتمة الكئيبة نور غريب . .

وصاح رجل آخر من ركن بعيد : « إننا هنا لندافع عن الأمراء ، وربما كانوا هم وأتباعهم يقتحمون بيوتنا . . وينتهكون أعراضنا ! »

وسرت فى الأعماق من كل رجل دمدمة خانقة . .

وكانت الشمس مازالت تسطع فى السماء بوهجها الحارق ، وتزهق الأنفاس ، ورفع بعض الرجال أكمامهم يمسحون من فوق الجباه قطرات من العرق الذى كان يركد برائحته فى الهواء . والنيل يمتد من بعيد صامتا بلا حركة ، كحياة مفرغة لا يعلم أحد أين بدأت ولا كيف تنتهى ! .

وهمس رجل فى أذن زميله: « ماذا صنعت بأختك ؟ » فأجابه بصرامة: « قتلتها هى والفارس الشركسى » ، وأجابه رجل كان يسمع الحديث :

« الفارس؟! أنه من أعز أصدقاء الأمير و . . . » وقاطعة الأول : شرفت. رفعت رؤوسنا ياشيخ العرب . . عاش الحماس يارجال ! » . . وأطبق الصمت على الجميع وكأن كل رجل يفكر فى مشكلة عميقة !.

وقال كهل كان ينظر فى الفضاء العريض : « اسمعوا يا أولاد . لقد تعبنا من هذه الحال . . لنا ثلاثة أيام ونحن غائبون عن بيوتنا . ما لنا نحن وهذه الحرب ؟ ليدخل مرادبك وأعوانه القاهرة أو فلينتصر إسماعيل بك ويحتفظ بهذا البلد ، فما لنا نحن ؟ ! . . »

فجاوبه شاب متحمس : أى والله . . إسماعيل بك مراد بك يتحاربان على الأراضى والجوارى والقصور والسلطة ، فما دخلنا نحن ؟ . سأعود إلى دارى » . . وهتف رجل : « انعد كلنا إلى دورنا » . وشقت الأصوات العديدة ذلك الصمت المصبوب ، والكل يقول : « لنرجع إلى البيوت » .

. . .

وفى الحق أن أهل القاهرة والصعيد جميعا كانوا قد تعبوا من الحرب . فهى ليست حربهم ، وهى لن تحقق لهم شيئا على الإطلاق .. والجيوش تستولى على كل شىء : على الدواب ، والطعام والأرزاق .. وحتى النفوس البشرية !.

وعلى الرغم من الخراب الذى أخذ ينشب أظفاره فى كل معالم الحياة والأحياء ، فما زال « مراد بك » ينشر الرعب فى القاهرة .

والجيوش تحتشد هنا وهناك، وتلتقى فى بعض الطريق ، فتهوى الرؤوس تحت سنابك الخيل وتسقط الإنسانية مفتوحة البطن على التراب ، وتختلط أحشاء الرجال بطين الأرض وتخرب الحقول ، وتنهب الدور ، وتهدر الحرمات . . ثم يهدأ الفريقان لبعض الوقت . . وبعدحين يعاودان صناعة المأسلة من جديد !.

وفى مثل هذه الحرب يهدر كل ما هو إنسانى : الحياة ، والكرامة ، والحقوق على السواء ! وقد عرف أهل القاهرة فى تلك الحرب ألوانا من

النكال . . هاجم المعسكرون فى بولاق كل حوانيت الحى ، وكل الدور ، واغتصبوا النساء، وفتكوا بالفتيات الصغيرات، وسرقوا كل ما استطاعوا.. وشكا أهل بولاق إلى « الباشا التركى » فقال لهم : « سأعاقب المعتدين . . ولكنها الحرب ! » . . ولم يعاقب أحداً . . لأنها الحرب :

وتشاجر فارس شركسى مع فتى من باب الشعرية . فضربه الشاب المصرى وطارده من الحى . وعاد الفارس يقود عشرة من الجنود فداهموا الحوانيت وحطموا بعض ما فيها ، وسرقوا ما وصل إلى أيديهم .. وهب رجال الحى فانهالوا على الجنود ضربا بالسكاكين والعصى . . ولاذ الجنود بالفرار وهم مثخنون بالجراح .. وكبر على الفارس أن يحدث كل هذا فعاد مصطحباً ثلاثة من كبار رجال الشرطة فقبضوا على الفتى المصرى..وقاومت أمه بكل ما تستطيع أم أن تحمى به وحيدها . . وأحنق الرجال ، فقتلوا الفتى الوحيد أمام عينى أمه الوالهة .. واختفوا جميعا تاركين وراءهم امرأة تعوى، وتقبل فى جزع مجنون كل ما بقى من وحيد مات: دمه وجثته الباردة!..

وثارت « باب الشعرية » ، وطالبت دماء القتيل بحقوق الدم .. ولكن « الباشا التركى » اعتذر للناس قائلا : « إنها الحرب ! »

وفى الحرب تهون الدماء ، وتفقد الحياة قيمتها العليا ، ويصبح الإنسان — هذا الكائن الجليل ذو المقدرة الشاسعة — مجرد حشرة تسحق فى صمت وبلا مبالاة !

* * *

غير أن « الباشا التركى » كان سعيداً حقاً بهذه الحرب . . فلو أن أمراء المماليك عقدوا فيما بينهم الصلح لواجهوه مجتمعين بمتاعب لاقبل له بها ..

وهو ما زال يوقظ الفتنة بين الطرفين . . ويؤلب امراء القاهرة على أمراء الصعيد الذين أعلنوا العصيان على الوالى التركى ، وبسطوا سلطانهم

على كثير من البلاد، وقطعوا الطريق على القاهرة وأخذوا يهددونها بالغزو ما بين يوم وآخر ..

ولم يعد الصعيد يرسل الغلال والخيرات إلى القاهرة..وعرفت القاهرة الجوع ! . على أن تجار الغلال كانوا يدفعون قدراً طيباً من المال للذين يحكمون الطريق،وما تكاد الغلال تصل إلى القاهرة حتى تباع بأرباح فاحشة لا يطيقها إلا قليلون ..

ولم تكن الغلال وحدها هي التي ارتفعت أسعارها فقد غلا كل شيء حتى الماء ..ولم يعد في مقدور الإنسان من أهل القاهرة أن يحتمل تكاليف الحياة .. وحتى الموت نفسه كان قد أصبح غالي الثمن !

على أنه لا الفقر ولا العذاب ولا كل ما يرهق أهل المدينة . كان سبباً صالحاً لتعكير صفو الحياة على الوالي التركي والذين حوله !

كسب تجار الحبوب في أيام الحرب أضعاف ما كسبوه في أعوام السلام وكانت لهم منزلة خاصة عند الوالي .. وكان لهم ذوق مصفى في تقديم الهدايا والهبات والجواري والحسان لكبار الرجال !...

أما تجار الأسلحة والبارود فقد كانوا أكثر ذكاء من تجار الحبوب ، إذ أشركوا الوالي في أرباحهم،فكانوا يكسبون في مدى أيام قلائل أضعاف ما يكسبونه أثناء السلم من تجارة عام كامل ..

وكان تجار الحبوب وتجار الحروب وصديقاتهم من الجواري والمحظيات ، يؤلفون بطانة للوالي ولكبار الرجال !

وقد حاول اهل القاهرة أن يشكوا من ضغط الحياة عليهم ، وطالبوا بتخفيف ويلات الغلاء ، والتمسوا من أمرائهم أن يعقدوا الصلح حتى تغدو الحياة أكثر احتمالا ، ولكن ضجة المصالح الفاسدة خنقت أنغام السلام . واستمرت الحرب ، واستمرت الحياة تمزق الأحياء !

...

ولكن الوالى التركى كان رجلا شديد الذكاء . . فقد شاهد تبرم الناس وضيقهم بما هم فيه . وقد رآهم يتصلون بعلماء الأزهر ويمضى واحد منهم إلى الأمراء مطالباً بالصلح فأمن العلماء على أرضهم الشاسعة ! . . وبطريقة ما جعلهم لا يشعرون بوطأة الغلاء ! . . وهكذا استطاع أن يعزل العلماء عن الشعب . . ثم رأى أن يشغل الناس عما هم فيه من أمر الغلاء وأعباء الحياة فقرر أن يشركهم فى هذه الحرب . . . وفى الحرب ينسى الإنسان نفسه ، وينسى متاعبه ، وينسى كل شىء ! . . وخرج بنفسه فطاف بهم وطالبهم أن يخرجوا إلى المتاريس ليدافعوا عن مدينتهم العزيزة ، وحين يردون عنها الغــزو فستمنح لهم الهبات وستنتهى الحرب ، وتنخفض الأسعار . لقد استعان على الناس بالعلماء ، فطالب العلماء أهل القاهرة أن يستجيبوا « للباشا » وعلى « يد الباشا » صلاح الأمور !

وصدق أهل القاهرة . . . وخرجوا إلى المتاريس . . . وأقاموا بها ثلاثة أيام . .

وفى هذه الأيام الثلاثة التصقت نفوسهم كما لم تلتصق من قبل . وعرف أهل «باب الشعرية» كثيراً من متاعب أهل بولاق . . وأشفق أهل بولاق على ما يلقاه أهل « الحسينية » و « بركة الفيل » . وروى بعضهم لبعض قصصاً رهيبة انتفضت لها نفوس الكثيرين .

لقد كان الكدح اليومى يعزل كل رجل عن أخيه الذى يعانى من نفس الأشياء . . . ولكنهم فى هذه الأيام الثلاثة أطلوا على نفوس بعضهم من خلال الأحاديث والشكايات .. وأدرك الجميع أنهم ضحية سخرية واحدة. وأنهم مرتبطون بخيط واحد مندفعون إلى مصير واحد :

وقرروا جميعا أن يعودوا إلى بيوتهم .. وفى الطريق إلى الدور كانوا يهزون رؤوسهم أسفاً ، لأن شيوخهم لم يدافعوا هذه المرة عن مطالبهم بتخفيض الأسعار . . ولم يتحرك واحد منهم منذ قابل بعضهم « اسماعيل

بك» ليطلب منه أن يعقد الصلح مع «مراد بك» . . ودارت وراء أسوار القصر أحاديث شارك فيها الوالى التركى ولا يعرفها الناس !

ولم يكد الجنود يخلون إلى أنفسهم وراء المتاريس حتى تركو أماكنهم هم الآخرون، وعادوا إلى بيوتهم.. فهم يعانون من الحياة كما يعانى أهل القاهرة...

وهم على أية حال لا يعرفون لأنفسهم مصلحة خاصة فى أن يقتلوا إخوانهم وأصدقائهم والرجال الذين لم يسيئوا إليهم من جنود «مراد بك» !

إن أهل القاهرة والجنود ، يشعرون أنهم يتركون حياتهم لرجال آخرين يتصرفون فيها ، ويستغلونها ، ويسخرونها كما شاءت الشهوات والأطماع .

واستقبلت البيوت رجالها الغائبين !

أية عاصفة مشئومة هوجاء هبت على هذه البيوت جميعاً ؟ هنا امرأة تصرخ وهناك طفل يئن . . أشياء وثمة أشياء خرساء !

ليسوا هم الأمراء والأتباع هذه المرة . . ولكنه عدو غير إنسانى ، بشع ، فظيع ، مهين . . إنه الجوع ! . .

وقالت امرأة تلهث لزوجها الذى يدارى الدموع : «لم يعد عند الخبازين قمح ولا ذرة ، وقد بعت كل شىء ! »

وقال طفل غاضت حياته وهو يتعلق فى عنق أبيه بذراع واهية: «أمى تقول أن أختى الصغيرة ماتت.. إنها فقط كانت تريد لقمة.. ولم تكن هناك لقمة ! »

وأطبق الليل على القاهرة . . وتفجرت بعض العيون والأفواه بالدماء!

وفى مكان آخر من المدينة كان الوالى التركى يجلس مع «اسماعيل بك» وحفنة من الأمراء والتجار الكبار . .

وأمام أقداح الخمر الفاخرة ، وعلى أنغام الرقص جلسوا يتناقشون. .

وتناول أحد تجار السلاح قطعة طيبة من اللحم وقال وهو ينهش ما فى يده : «ما دام أهل القاهرة قد تركوا المتاريس فسيموتون من الجوع!»..

ونظر إليه «إسماعيل بك» مندهشاً . . وكان مهموماً حقاً .

وأخذ «الباشا» يشرح الموقف لتجار الحبوب ، فعرض عليهم أن يخففوا

الأسعار بعض الشيء ليضمن لهم استمرار الربح . . فان هذا وحده هو الذى سيقنع الناس والجنود بالخروج إلى المتاريس . . وأطرق تجار الحبوب . . وتقدمت إحدى المحظيات إلى « الوالى » بكأس من ذهب ، وجعلت تسقيه وهى تلاطفه . . ثم قالت : « اقتل هؤلاء الناس الذين يعصون أمرك يا مولاى » . . وهتف أحد تجار السلاح ضاحكا : « أنها فكرة طيبة . ! وضحك الجميع . ولكن « اسماعيل بك » ظل وحدة صامتا مهموما . .

وبينما كان « اسماعيل بك » يتابع عبث الرجال أقبل رسول يقول : « إن مراد بك على أبواب القاهرة » . . وانتفض إسماعيل بك واقفا ، وقفز « الوالى » من مكانه . . واختلط المجتمعون وتعالت الصرخات . . وشعر النساء بمثل حد السيف يمس الأعناق الناصعة الرقيقة :

وفى لحظة كان « اسماعيل بك » مع بعض أتباعه يقفون وراء المتاريس أما الوالى فقد خرج فى موكب كبير من الحراس يطوف على الحارات والدروب . .

وحطم الحراس أبواب الحارات . . وأخذ الوالى يدخل بيوت الجنود وأهل القاهرة يطالبهم بالخروج إلى المتاريس ، . فالقاهرة فى خطر ؟

وأشار اليه رجل يحمل طفله الميت وهو يقول : « هذا هو الخطر ، »

وصرخت فى وجهه امرأة « أتركونا . . إننا نموت من الغلاء والجوع » وذهل الوالى .

وطاف على بيوت العلماء لعله يجد واحداً يمضى معه ليقنع الناس . . ولكن العلماء جميعا نصحوا له بألا يعتمد على أهل القاهرة . . فهم مشغولون عن محاربة « مراد بك » بمحاربة الجوع . . وصاح الوالى محنقا فى واحد منهم : « ولكنكم أنتم تحركون القاهرة ! . وهم يستمعون لكم وحدكم » . . فقال الشيخ فى وقار : « لا . . أنها هى التى تحركنا وقد أفلحت لبعض الوقت فى أن تفصل بين أغنياء العلماء وبينها . . فلو طالبها أحد اليوم بما تريد لقتلته ! » . .

وظل الوالى يطرق الابواب حتى الصباح . . بلاجدوى . . لقد سمع

من كل بيت .. من كل امرأة ورجل وطفل .. أن الخطر الحق يلبثق منه ومن أعوانه . . وإن القاهرة تريد أن تعرف الحياة الآمنة . إنها تريد الخبز والسلام ! ..

وفى الصباح كانت القاهرة كلها تهتز بالصياح والوعيد . . وكان العلماء حتى الذين صانعهم الوالى.. يمضون مع الناس مطالبين بالسلام ، وبتخفيض الأسعار ، وإصلاح الحياة !..

وعلى أسوار القاهرة — وراء المتاريس — كان إسماعيل بك ينتظر هو وحفنة من جنوده .

وتقدم أهل القرية إلى المتاريس فحطموها .. وأدرك «إسماعيل بك» أنه لا يستطيع أن يحارب فى جبهتين برجال قليلين ، فقد كان معظم الجنود مع الأهالى يطالبون بعقد الصلح وتخفيض الأسعار ! وكان هذا كله جديداً عليه .. واضطره الناس إلى ترك الأسوار .. وسار معهم إلى «الوالى التركى»! الجميع يطالبون بعقد الصلح .

إن المعجزة وحدها هى التى أخرت هجوم «مراد بك» ، فلو أنه هاجم القاهرة فى تلك الليلة لاستولى عليها بلا عناء .. وربما طار رأس الوالى عن جسده.

وأعلن «الوالى التركى» أنه سيعقد الصلح بين أمراء القاهرة وأمراء الصعيد . . وكان وهو يعلن للناس هذا القرار يعالج فى أغواره إحساس الداهية المهزوم .

— والغلاء يا باشا ؟!

وسكت «الباشا» قليلا ثم أعلن أنه سيخفض الأسعار . . إن الأسعار ستبدأ فى الانخفاض .

ولم يقنع الناس ، وطالبوا بأن تعود الأسعار إلى ما كانت عليه ، وطالبوا أيضاً برؤوس كبار المستغلين . . فهم مسئولون عن الأرواح التى أرهقها الجوع !

وأدرك الباشا أنهم فى هذه اللحظة قادرون على خطف رأسه هو . . فلم يقل شيئاً . . ودخل إلى قصره قليلا ، وتقدم الناس يزحفون إلى القصر

وسقط بعض الحراس قتلى . والناس يزحفون .

وخرج « الباشا الوالى » ضاحكا ومن ورائه فارس عملاق يحمل حربة طويلة . . وأشار اليه فرفع الحربة وأشار الباشا ضاحكا إلى رأس بشرى معلق فيها وكان الدم ما زال يقطر منها .. وصاح : « هذا هوعدوكم الأكبر»

وهلل الناس وغمرهم فرح هائل . . فهذه هى رأس أكبرتجار الحبوب لكم أذيع أنه صديق الباشا وصفيه . . !

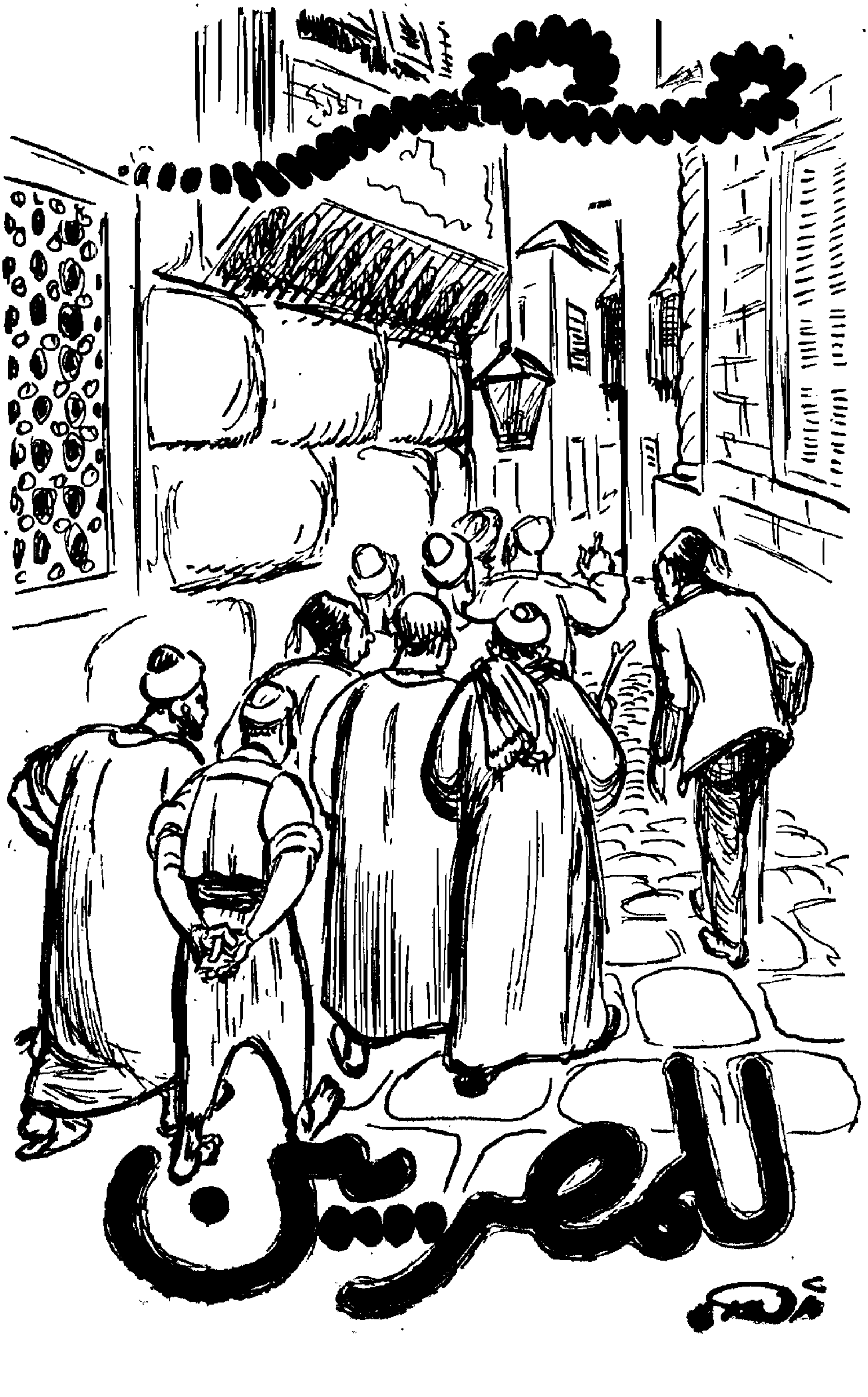
وعاد الباشا يقول للناس « هل أنتم راضون عنـا ؟ . . قتلنا الغلاء ، وهذا هو صانع الغلاء ! »

وتعالت الأصوات : « راضون . . الله يرضى عنك »وانصرف الناس مستبشرين وخيل « للباشا » أنه كسب المعركة بعد أن ضحى بصديق عزيز عليه حقاً . . وخيل اليه أنه سخر بالناس .

وعلى أية حال فقد عادت الأسعار كما كانت . . وعقـــد الصلح بين الأمراء . . وانتهت الحرب . ولم يعد أحد من التجار يستطيع أن يسرق من أرزاق الناس اعتماداً على صداقة « الباشا » . وهكذا أبطأت الكنوز والأموال عن خزائنه .

وبدأت بهجة الحياة تشرق من جديد فى وجوه الأحياء من أهل القاهرة وأدركوا منذ ذلك اليوم أنهم يستطيعون أن يفرضوا حقوقهم على الأمراء وعلى الوالى نفسه ، وأنهم يستطيعون دائما أن يكسبوا المعركه . . مهما يكن النصر بعيد المنال . . حتى لو تخلى عنهم قوادهم لبعض الوقت .




للمصريين

طلبت الحكومة من الفلاحين والتجار والصناع أن يدفعوا مزيداً من الضرائب . وأن يضحوا فى هذه الأيام بكل شىء لأن مصلحة الدولة فى خطر .

ولم يكن لديهم شىء يضحى به على الاطلاق . . فمنذ سنوات طوال — عندما لم تكن مصلحة الدولة فى خطر — وهم يحصلون على القوت بمعجزة وأحيانا لا تسعفهم المعجزة ! . . ولقد هجر الفلاحون الحقول هربا من لذع السياط فتخطفهم لصوص البدو ، وارتمى الآخرون تحت أقدام المرابين ليستطيعوا دفع الضرائب المتراكمة ، فاستولى المرابون آخر الأمر على ماشيتهم ثم صاروا عبيداً يعملون بلا مقابل فى الأرض التى امتلكوها ذات يوم ، ثم لم يعد فى مقدور دمائهم أن تنزف قطرة أخرى . .

ولم يعرف الصناع والتجار الصغار فى القاهرة كيف يستطيعون أن يدفعوا ضريبة ثانية ، فان كدحهم المضنى ليعجز حتى عن اطعام الجياع من ورائهم !

لم يفهم واحد منهم شيئا من هذا الذى يحدث فى تلك الأيام الزاهرة من عصر اسماعيل !

فانه على الرغم من لهب الجوع الذى يلفح أمعاء الفلاحين فما زالت الطرق والترع تشق لتصلح أرض السادة الكبار ، والقصور الباذخة ترتفع على مشارف الأفق النابض بالأنين ، حيث يتهالك فى صمت عديد من البيوت السوداء !

وغير بعيد من الأزقة التى تزحف الأطفال عراة على طينها ، كانت الحدائق تزدهر ، والتماثيل ترتفع إلى السماء ، والشوارع الأنيقة تمتد ، والسهرات الباهرة تزحم ليالى القصور !

ولقد قيل ذات يوم للذين عرفتهم اللعنة أن مصر أصبحت للمصريين . ومع ذلك فهم يرون وجوها حمراء جديدة تزحف تحت قبعاتها لتغزو المدن والقرى !

وفى الحق أن مصر كانت قد استقلت عن تركيا . . وبدأت بإعلان العصيان فى وجه تركيا ، فقاومت الدول الكبرى هذا العصيان أول الأمر كما كانت تقاوم كل حركة استقلال وتحرير فى ذلك الزمان . غير أن انجلترا

الواسعة الغنى بدأت تلوح لمصر بمساعدتها المالية البريئة تشجيعا لنهضتها . !

وعندما قبلت مصر هذه المساعدة أيدت انجلترا استقلال مصر وأخذت تملأ سمع العالم بأحاديث طوال من حقوق الشعوب فى الحياة الحرة، وحملت تركيا على أن تعترف لمصر بالاستقلال، ومضت تعرض على مصر خبراء فنيين يشرفون على إنفاق المساعدات المالية فى وجوه النهضة . وأخذت مصر بدورها تستدين وتستدين، والخبراء يتدفقون لمراقبة الانفاق.. ثم لمراقبة السداد .. ثم للإشراف الكامل على الميزانية كضمان طبيعى للوفاء بالديون وفوائدها ..

أما الذين عرفتهم اللعنة ، فقد وجدوا أنفسهم على الدوام يدفعون الضرائب . . كانوا يدفعون أول الأمر لإرسال الجزية إلى تركيا ! . . ثم عادوا يدفعون لأداء ديون الدولة لأوربا وأنهم ليطالبون الآن بدفع ضرائب أخرى لأن مصلحة الدولة فى خطر .

وأقبل منهم إلى القاهرة بعض الذين وسعهم أن يرحلوا ، وما تزال فى خيالاتهم صور سمعوها فى الطفولة عن الأجداد : إذ ينزعون إلى القاهرة ليلتقوا بإخوانهم وأقاربهم من التجار والصناع ، ويندفعون إلى الجامع الأزهر مستجيرين بعلمائه من مظالم أمراء ذلك الزمان . وكان العلماء يندفعون بالمواكب الثائرة ليقتنصوا حقوق الناس من حكومة مصر !

ومضى الأحفاد على نفس الطريق . . ومات منهم على الطريق غير قليل وعندما وصل الباقون وجدوا أمام الجامع الأزهر رجالا غلاظا عديدين أنهالوا عليهم بالضرب ، وأمسكوا منهم بكثيرين فساقوهم إلى السجن ؟ . . وبعد حين التقى الذين ظلوا أحراراً فلاذوا ببيت أحد التجار وقرروا أن يزوروا العلماء فى دورهم . . غير أن العلماء لم يكونوا كما يشتهون: فقد اختفى بعضهم ولا أحد يدرى أين اختفى؟ ومضى الآخرون يمتدحون عدل الحكومة التقية النقية وصلاحها . . ! وآثر بعضهم العاقبة فلم يعد يتكلم ! ولقد تكلم واحد منهم فحكم عليه العلماء الرسميون بالكفر ، وحكم عليه القضاء بالسجن!

واقترح واحد من الصناع على المجتمعين أن يمضوا إلى جريدة «التجارة» ليقابلوا « أديب اسحق » فقال له موظف صغير كان قد فصل وشيكا : «لقد عطلت الحكومة جريدته ولكن تعالوا إلى باب الخلق لنبحث عنه في المقهى»

كانوا عشرة رجال من الفلاحين ، والصناع ، والتجار ، وموظفا صغيرا ومضوا يترنحون على الطرقات بخطوات ذاهلة كأنهم يحملون فوق الظهور أثقالا أقبلوا بها من مكان بعيد . والحق أنهم على مدى أجيال طوال قد حملوا في الصدور منهم وعلى الظهور كثيراً من الأهوال والأثقال ! ولم يجدوا « أديب اسحق » . . ولا المقهى ! فقد أغلقته الحكومة ، واعتقلت صاحبه ، وعماله ، وزبائنه ...

ودب في نفوسهم يأس ممض.. إلى أين يتجهون؟ لا أحد يستطيع أن يوجه خطواتهم ...: وقال واحد من الفلاحين: «سنعود إلى قرانا بإذن الله ! » غير تاجراً صاح فيه : « اسكت ! . . . تعالوا معي إلى منزل أن جارنا إليك»..

. . .

وجلسوا ينتظرون «البك» في حجرة فسيحة تطل على حديقه المنزل . . كان هو منشغلا إذ ذاك بالحديث مع اثنين من زملائه الضباط ومعهم ثلاثة من الموظفين .. « إن الحكومة لتمضي مع هؤلاء الموظفين جميعاً على سياسة عجيبة حقاً . . . فهي تدفع لهم أجوراً يواجهون بها نفقات الحياة . . ولئن ارتفع صوت واحد منهم بالشكاية لوجد نفسه على الفور في الطريق ! . .

ولقد اضطرتهم الحكومة بأسلوبها هذا إلى أن يرتشوا . . فأصبحت مصالح الناس لا تقضى إلا إذا دفعوا الثمن .. أما الذين تأبى عليهم ضمائرهم أن يرتشوا فليموتوا من الجوع . .

فإذا ما جمت إحدى الصحف هذا الفساد العريض ألقى بصاحبها في السجن ...

وهي لا تسمح لهم بأن يتحدثوا في السياسة أو يشتغلوا بها . وإنهم ليرون الانجليز يتسللون إلى كل مرفق ، ويشعرون — كمواطنين — بأن

عليهم مسئولية تنبيه الشعب إلى هذا الخطر الذى يوشك أن يخنق الوطن . ولكنهم محرومون حتى من هذا الحق ! . . حق الذى تعذبه النار فى أن يصرخ!

ولقد شعرت الحكومة منذ حين بروح تمرد على هذا الوضع فأخذت تفصل الموظفين بلا حساب وتعين بدلا منهم أجانب بمرتبات فاحشة !

إن هذا الضغط على أرزاق الموظفين وهذه القيود الغلاظ على الحريات هى التى تحمى الاستعمار الزاحف ، ولهذا يجب تحطيمها لتصبح مصر للمصريين حقاً . . يجب أن يشعر الموظف أن الوطن يمنحه بقدر ما يمنح هو الوطن .. فهذه البلاد بلاده هو لا بلاد « نوبار باشا » أو « رياض باشا » أو الدائنين!. ومن أجل ذلك فلن يسمح الموظفون بأن يوفر منهم واحـــد بحجة توفير المال للدائنين ! . . »

وانتهى الموظفون والضباط إلى قرار . . فنهض « البك » ومضى إلى الحجرة التى ينتظر بها التجار ، والصناع ، والفلاحون . . ولم يكد يشرف بطلعته المديدة المهيبة حتى خف إليه جاره التاجر قائلا : « أسعفنا يا لطفى بك .. الضرائب الجديدة يا سليم بك » . . وكانوا جميعاً واقفين ، و « لطفى سليم » ينظر إليهم بقامته الفارعة ، كفارس سيقدم وشيكا على عمل نبيل.. ونظر إلى التاجر فى رسوخ وهو يقول : « هل تعلم أنهم وفروا منا ألفين وخمسمائة رجل ! ؟ ألفين وخمسمائة ضابط ، سيجدون أنفسهم وأولادهم بلا طعام ! .... فرد الموظف المفصول : « والمئات الأخرى من الموظفين المدنيين ؟ » . فصرخ أحد الفلاحين : وأين تذهب الضرائب التى ندفعها ؟ ! الضرائب يا بك . . أنقذنا يا بك ! »

وقال لطفى سليم : « فى الغد سندبر نحن الأمر بإذن الله . . . سنذهب إلى المالية » . . . فقال الجميع : « إن شاء الله » . وانصرفوا فى تلك الليلة من فبراير .

• • •

وفى الصباح تحرك ستمائة ضابط من المسرحين إلى وزارة المالية على رأسهم البكباشى « لطفى سليم » المدرس بالمدرسة الحربية . . . وكان وزير المالية إذ ذاك انجليزيا فرضته مصالح الدائنين . ولم يكن « خديو مصر » حفياً به على الإطلاق فهو الحسـيب والرقيب على كل التصرفات المالية والشخصية للخديو . . وللدولة !

وفى الطريق إلى وزارة المالية ، مر الضباط على المجلس النيابى . . . وكان نظام الانتخابات إذ ذاك لا يسمح بأن ينتخب الناس نواباً يمثلون مصالحهم الحقيقية . ومن أجل ذلك فلم يصحبهم غير أربعة من النواب ، امتطوا ظهور الحمير ، وتقدموا صفوف المظاهرة .

كان هؤلاء النواب يرون ، مع سواد الشعب ، الموظفين ورجال الجيش أن هذه الوزارة تحكم باسم الدائنين ولمصلحتهم وحدهم ، وأنها يجب أن تزول . . . وكانوا يطالبون أيضاً باطلاق الحريات العامة للمصريين ، وبأن تيسر الميزانية لخدمة طبقات الشعب التى تتحمل العبء الأكبر من الضرائب .

ومضت المظاهرة يحيط بها الناس من كل جانب هاتفين : « الغوا الضرائب » وقابلت المظاهرة عربة «نوبار باشا» فأحاط به المتظاهرون . . وقبل أن يبدأوه الحديث استشاط غضباً وأمر الحوذى أن يلهب بسوطه ظهور الخيل والناس !

وهوى الحوذى بسوطه على الجياد فهوى عليه المتظاهرون بأيديهم وألقوه على الأرض ! .. وروع « نوبار باشا » وملأه الاشمئزاز من هذا الأسلوب الذى يعامل به الضباط والنواب حوذى عربته ، فصرخ فيهم : « انصرفوا أيها الفلاحون » .. وانهمرت من فمه الشتائم .. لحمله الثائرون

هو الآخر وألقوه على الأرض إلى جانب الحوذى ، والأحذية تتداوله من كل سبيل . .

وأقبل الوزير الانجليزى إذ ذاك فانهال بعصاه على المتظاهرين . غير أنه لم يكن أسعد حظاً من « نوبار » ولا الحوذى . . فقد جذبه الثائرون من لحيته ومرغوا الأرض ببدنه الصاب ثم تقاذفوه كالكرة . . وأخيراً سحبوه هو و «نوبار» ومضوا بهما إلى داخل قصر الوزار» .

وصادفوا «رياض باشا» فى تلك الأثناء فسحبوه معه .. وافتحموا أبواب مكاتب الوزارة واحتلوها ، ووضعوا الرجال الثلاثة فى حجرة جعلوا منها سجناً . .

حدث كل هذا فى سرعة خارقة بين التهليل وصيحات الشماتة والفرح ، وكانت الأنباء تطير بثورة الضباط ، فتنحدر المئات والمئات من الشوارع والأزقة والدروب . . لتلتقى بثورة الضباط . .

وسمع القنصل الانجليزى بالقصة فهرول إلى « الخديو » مستنجداً . . فأسرع الخديو إلى الثائرين . . . وإذ رآه الناس دوت الهتافات من كل جانب تطالب بإلغاء الضرائب وإطلاق الحريات وتحسين مستوى الحياة ..

وتقدم الخديو يسأل الضباط عما يريدون ، فقال رجل مجهول : « نريد إقالة هذه الوزارة... نريد الطعام للجميع ! نريد الحرية يا أفندينا» وطلب الخديو منهم أن يخرجوا عن الثلاثة المسجونين أولا ، فلم يجب أحد وسكت الخديو لحظة ... ثم ارتفع صوت : «حققوا مطالبنا أولا» وجاوبه صوت آخر : « نريد مرتبات كافية للموظفين .. أعيدوا الذين فصلوا من الجيش والوظائف » ..

وقبل أن يجيب الخـــديو دوت طلقة رصاص . . وتقدم واحد من الضباط يريد أن يمسك الخديو من ذراعه فسحب الخديو ذراعه بعنف ، وأمر رجالة أن يفرقوا المتظاهرين بالقوة .. ودارت معركة رهيبة قصيرة وسقط عن يمين الخديو « التشريفـاتى » الخاص ضريعاً بطعنة .. سيف قاتلة ..

وصاح الخديو فى الضباط أن يهدأوا وأن يطمئنوا .. وإنه لهو المسئول أمامهم عن تحقيق كل مطالبهم .. ثم انصرف الخديو ليوقع مرسوماً بعزل « نوبار » .. ومرسوماً آخر بإعادة الضباط ..

وأفرج الثوار عن المسجونين الثلاثة .. ولكنهم لم يكونوا بعد وزراء .. وبعد شهر واحد أطلقت الحريات العامة للمواطنين .. غير أنها أطلقت بعد الأوان ذلك أن الاستعمار الزاحف كان قد وطد سلطانه من خلال مرحلة الطغيان السابقة التى كمم فيها « نوبار » كل الأفواه ..

واصطدم الاستعمار أول ما اصطدم بهذه الحريات .. ولم يعد فى مقدوره أن يترك مصر للمصريين





انطلقت الجياد الفارهة القوية بالعربة المذهبة خلال طرقات مليئة بالغبار، والذباب ، والرجال المهزولين .

كانوا شاردين كفئران سفينة غقيرة وهم يرسلون نظراتهم المتعبة إلى الخيل الجيدة العلف وإلى الأشياء التي تلتمع على بدن السيدة الشابة داخل العربة ، ويتساءلون في حيرة : « من عساها تكون ؟»

وأخذت « شمس » تقبض نظراتها عنهم وهي ترتجف ، فلم تكن ترى في كل الناس غير كائنات مزعجة تتقن الحسد ، وإفراز العرق الكريه !

وإنها لتعود اليوم إلى مولاها بعد غياب أسـبوع كامل ، وبها من الشوق إليه ما يفلح كل قطعة من جسدها البض البديع . وإنها لتعود منتصرة على أية حال ، فقد أحرزت من النجاح في مهمتها ما لم يكن يستطيعه مائة داهية من رجال السياسة والحرب !

وكان مولاها ينتظرها معذبا ، ضيق الصدر .. وقد جلس بين جواريه وحاشيته ، وبالقرب منـه « قشتمر » فأخذ يربت على خده قائلا : « أين أختك ؟ . . أين شمس ؟ . . لماذا لم تعد بعد ! ؟ » فقالت جارية فاتنة « ما هذا كله يا مولاى ؟.. نحن هنا ! » وضحك الجميع حتى « قشتمر » ولكن مولاهم لم يكن مهيأ النفس للضحكات فصاح : « أتمزحون ؟ . . ألا تعرفون بعد إلى أى حد يتوقف مصيرنا جميعا على نجاح شمس في مهمتها ! ؟ لو أن هؤلاء الفلاحين ظلوا متحدين . فهي النهـاية إذن ! لقد ملأتهم السنوات القليلة الماضية بالكبرياء والعناد والأحلام.. فمنذ استطاعوا طرد الفرنسيين وهم يحلمون بأن يحكموا أنفسهم . ولئن لم ينجح شيخ البلد في إثارة الفتنة العنصرية بين العرب والفلاحين ، فلن تقوم لنـا نحن الأتراك قائمة بعد . إن كل شيء يغلي اليوم ، فقد وحدت الثورة بينهم منذ سالت دماؤهم معا ، مختلطة بتراب الأرض التي يدافعون عنها ! ومع ذلك فقد كان العرب منهم

يحتقرون الفلاحين ، والفلاحون يشمئزون من العرب . ومن هنا يجب أن نشعل نار الفتنة لنحول التيار عنا ! . . إنكم لتخفون على أشياء خطيرة ، ولكننى أعرف جيداً أن مواكبهم الشائهة، التى يختلط فيها عرقهم العفن بغبار الطريق، تنطلق فى كل يوم بصباح مشئوم ، مطالبة برأسى.. رأسى أنا ! .. إنكم جميعاً تكذبون على ولكن .. ولكن أين شمس ؟. لماذا لم تعد شمس ؟!

وكانت « شمس » قد بلغت القصر ، فأسرعت إلى مولاها تزف إليه البشرى ، فى صوتها الذى أرهق نغماته السهر والشراب . لقد تم كل شىء على مايرام ! » .

فقال: « كيف؟ . . كيف ياشمس ؟ » ومد ذراعيه إليها ، فاندفعت نحوه تقبله . . وبدأت تروى له كل ماحدث لقد استبقاها شيخ البلد العجوز الماكر طويلا ، وفى كل صباح كان يقول لها أنه فى حاجة إلى ليلة أخرى ليفكر ، ولقد رأى شيخ البلد أول الأمر ، أن إثارة الخلاف بين العرب والفلاحين غير ممكنة إلا فى الريف ، أما فى القاهرة فمن المستحيل عليه أن يعرف من هم العرب، ومن هم الفلاحون . .وأهل القاهرة أنفسهم لايعرفون ومن أجل هذا فسيثيرها فتنة بين المسلمين والأقباط ! وقد استدعى بالفعل رئيس جماعة الأذكار والأناشيد الدينيـــة ، وهى جماعة متعصبة حمقاء ، يسيطر على عقولها جنون العظمة والمراهقة ، والأوهام الغامضة عن المجد القديم .

ثم لوت «شمس» بدنها المثقل بالمتاع الأنثوى ، وغمر وجهها الأبيض نور عجيب ، واستمرت تقول : « آه يامولاى لو شهدت هذا العجوز اللطيف، وهو يستقبل رئيس هذه الجماعة ،لقد وضع أمامه سيفا ومصحفاً، ثم أخذ يحدثه ببراعة عن فساد أمور الدين والدنيا ،وعن المناصب الخطيرة التى يتولاها الأقباط ويحرم منها النابهون كأعضاء جماعة ! . . ثم أخذ

يهمس فى اذنه بكلام طويل عن المجد الذى ينتظر هذه الجماعة . . والمناصب التى يجب أن يحتلها كبار أعضائها . . ولم أسمع من مخبئى بقية الحديث ولكنى رأيت رئيس الجماعة يهز رأسه وقد انبسط وجهه المتقلص المتشنج ! وعندما نهض ، كان الشيخ قد وهبه غلاما وكيسا من ذهب ! وحين خرج لم يدعنى شيخ البلد الماكر انصرف ، فقد استبقانى ليلة أخرى ، وفى الصباح استدعى « سركيس » وكلمة بتأثر عن مجد الفراعنة . . وعن المناصب التى يحرم منها الأقباط أصحاب البلد بينما يتمتع بها أحفاد العرب الغزاة وحدهم ! وتجهم « سركيس » وأوشك أن ينصرف ، وهو يبدى استنكاره لهذا الذى يسمعه. ولكن شيخ البلد همس فى أذنه وهو يخرج ، أن يحذر أبناء ملته من مذبحة ستحدث عن قريب ! » .

فصفق صاحب القصر . « ما أبرع هذا . . ولكن متى يتم هذا ياشمس ؟ فقالت شمس : « غداً إذا أرسلت إليه خمسة أكياس من الذهب! أنه ليجتمع الآن بكثيرين من جماعة الأذكار والأناشيد الدينية ! » .

ونهض صاحب القصر ليأمر بإرسال أكياس الذهب إلى شيخ البلد ! .

• • •

وفى الغد كان مقرراً أن يجتمع الناس فى مسجد كبير ، لينحدروا منه إلى قصر الوالى يطالبونه بأن يعتزل . وكان الناس فى تلك الأيام يجتمعون فى المساجد والكنائس ، ثم تقذف بهم الأماكن المقدسة إلى حرم الكفاح فى الميادين ، والطرقات ، وأمام قصور الطغاة !

غير أن شيخ البلد كان قد دبر كل شىء بمهارة . فى الصباح الباكر قبل أن يزدحم الناس فى المساجد والكنائس مر ثلاثة من الشرطة بحانوت الحاج مصطفى ، وهو رجل طيب يجله أهل الحى ، واغتصبوا من الحانوت أقمشة

وروائح ، ثم قتلوا الشيخ وغلاميه ، وأعطوا المسروقات « لجرجس » و « مرقص » . . واختفى رجال الشرطة على الفور ، ولم ينسوا قبل أن يختفوا أن يهمسوا بكلمات « للشيخ على » ، الذى كان يقف غير بعيد .

وصرخ الشيخ على بصوت مرتفع : « يامسلمين . . الحقوا يامسلمين . . مرقص قتل الحاج مصطفى ونهب تجارته ! » .

وصرخ مرة ومرة .

وطبقا للخطة المرسومة انقض « جرجس » على الشيخ على العضو الموقر بجماعة الأذكار ، فصفعه ثم انتزع عمامته ووطئها بحذائه . .

وتجمع رجل من هناك ورجل من هنا بينما لاذ «مرقص» و «جرجس» بالفرار أمام عيون الناس الذين وقفوا جزعين ينصتون للشيخ على وهو يروى لهم قصة مصرع الحاج مصطفى وولديه ، وعن البضائع التى سرقت لتذهب إلى خزانة الوالى !

وفى تلك الأثناء كان خطيب فى المسجد يحدث الناس عن واجبهم فى النضال . .وكيف ينبغى لهم أن يحاسبوا الوالى العثمانى وجنوده،على الفساد العريض الذى يملأ الأرض . . وكان الرجل قد انتهى من حديثه إلى حض الناس على انتزاع أقواتهم من أنياب الوالى ، وأظفار أعوانه الملطخة بالدماء ! . . فهم الآن ينتظرون إشارة البدء ، لينقضوا على قصر الوالى ومخازنه . . وفى تلك الأيام كان الضيق والغلاء ينهشان أعماق كل نفس ، والفاجعة هى الشىء الوحيد الذى تصافح به الحياة إحساس الناس . وكان كل رجل أو امرأة يريد أن ينفجر فى شىء ما . . . ولم يكن أحد يستطيع على الاطلاق أن يحتمل جاره ، فالناس حتى الأصدقاء منهم ، يتشاجرون لأتفه الأسباب . .

وفى لحظات كهذه تموت فى النفس الإنسانية أجمل معانى الحياة . . يموت الحب ، وتموت السماحة ويصبح الكيان البشرى مجرد شحنة من الكراهية على استعداد تام لأن تنفجر فى وجه الذين جعلوا من الحياة ماساة . . فان لم تنفجر فيهم ، انفجرت فى أى شىء آخر !

وهكذا كان كل رجل فى المسجد يشعر فى أعماقه بطاقة رهيبة ، ويشعر أن جاره هو أيضا طاقة أخرى مساعدة ومن هنا كانت الوحدة بين هؤلاء الذين ربما لم يعرفوا بعضهم من قبل ، والذين لم يخطر لواحد منهم أن يسأل أخاه من هو ؟ ولا كيف يعيش ؟ ولا من أى دين أو أب ينحدر ؟ . . أنهم جميعا ليحملون نفس الأثقال، ويخشون نفس المصير ، ويهتزون بالأمل الواحد . وهذا يكفى ! . .

وإذ بدأ الناس يتحركون ، اندفع « الشيخ على » إلى المسجد ، وفراغ المسجد نفسه كأنه وتر مشدود !

كان عارى الرأس ، ولقد اختاروه رجلا يحسن الكلام ! ومضى فى صوت متهدج يتحدث عن الخونة الذين يسرقون لحساب الوالى.. ثم تحدث عن مصرع « الحاج مصطفى » وولديه .. وروى قصة عمامته التى وطئت بالنعال وهو يبكى . . وطالب بالثأر للدين من جرجس ومرقص وأهل بلدتهم فهم الأعداء الحقيقيون ، وهم شر عداء من الوالى نفسه . وإن جرجس ومرقص لفى الكنيسة المجاورة ، فلتهاجم الكنيسة إذن !

وكان بين الجالسين فى المسجد غير واحد من جماعة الأذكار.. وخرجوا هم أيضاً مطالبين بالثأر . . وحاول خطيب المسجد أن يتكلم . . ولكن جماعة الأذكار كانت قد جعلت الناس فى تلك اللحظة ينسون تماماً أنهم فى ثورة ضد الأتراك ، والأتراك وحدهم هم الذين سيكسبون من كل هذا .

وكان الذين فى الكنيسة المجاورة قد انحدروا إلى قصر الوالى ومخازنه باسم الثورة ، وفوجىء حارس الكنيسة بالنار تحيط به ، وبرجال يقبضون عليه ويلقونه فى النار! ولم يستطع الرجل العجوز أن يفهم شيئاً،ورأى من خلال الدخان وهو يحترق كثيراً من الوجوه القاسية المتجهمة التى تضحك فى وحشية ، والتى كانت بالأمس سمحة حزينة تبتسم فى إشفاق !..وطافت به إذ ذاك صورة المسيح رمز الصبر والرحمة وشهيد السلام .. وخيل اليه وهو ينتهى أنه يعيش عبر التاريخ ، فى بعض عصور الشهداء والقديسين !

* * *

وفى الليل كان قصر الوالى يصخب برنين الكؤوس والضحكات . وكان هذا يحدث كل ليلة حتى مر أسبوع..وفى مثل ليلة الحادثة وقد تمدد الوالى على أريكته إلى جوار «شمس» بينما انعقد ضباب المخدرات الأزرق الشفاف على الرؤوس، والجوارى يرقصن على خفق الشموع ، والخمر الفاخرة تسيل على أجسادهن . قال الوالى لشمس ويده على ظهرها العارى . « ألا ترسل لشيخ البلد مكافأة جديدة ! » فتمايل أحد الجالسين بالقرب منه ، وقال بلسان أثقله الخدر والشراب . « ولكن لم يعد لدينا مال ! » وضج الجميع بالضحكات . . فقال الوالى : « إذن اجمعوا من غد عشرين كيساً من أهل القاهرة . . سموها ضريبة .. الـ .. أى شىء .. وادفعوا له عشرة أكياس ! إنه خادم أمين .. » .فقالت شمس: «إنه داهية يامولاى !.. لقد أخذ منذ أمس يزور رجال الدين من الأقباط والمسلمين،ويدعوهم إلى تهدئة الحال !» وضحك الوالى طويلا وهو يقول : « هذه هى السياسة يا شمس ! إنه يذهب باسمى أنا أيضاً ! » . . فالت شمس : « لن تقوم للثورة قائمة بعد . . إنهم يتناحرون منذ أسبوع كامل ! » وإذ أخذ الوالى يقبلها شاكراً قال فشتمر بزهو : « الفضل لشمس.. لأختى شمس ! ». غير أن رئيس الشرطة دخل

فجأة وهو متجهم . . فقال له الوالى ، وهو يتطوح على أريكته : « ماذا يا وجه النحس ؟ . . أهذه هيئة تدخل بها على مجلس شراب ؟ » فقال الرجــل فى صرامة « إن طلبة الأزهر يجتمعون على شر » فقال الوالى مستخفاً : « وماذا يريد الصغار » . فقال رئيس الشرطة : « ومعهم كثيرون من جماعة الأذكار » . فقالت شمس : « حسنا . . » . فقال رئيس الشرطة: « ومعهم أيضا شباب الأقباط ! » . فرد الوالى عليه : « ألم يقتلوا بعد ؟ ! اذهب . . اذهب . . ودعنا . . »

- وذهب رئيس الشرطة ثم عاد من فوره . إن الأنباء ليست طيبة إلى الحد الذى يجعلهم يبتهجون هكذا .

فبعد أن أحرقت الكنيسة أخذ «سركيس» يطوف بالكنائس الأخرى يدعو الأقباط إلى رد العدوان، واجتمع كثيرون منهم بالفعل ، واستعدوا لرد العدوان ، غير أن بعض شبابهم تساءل : «وماذا نصنع بالثورة ؟» . ولم يجدوا جواباً . . وعادوا يسألون : «وقضيتنا ! ، قضية استقلالنا وحرياتنا ؟ وهــذا الوالى الذى يفسد فى الأرض . . أنتركه لندخل فى حرب دينية ؟ . »

وبينما كان شباب الأقباط يتناقشون أخذ طلاب الأزهر فى المسجد الكبير بعد صلاة المغرب يعلنون استنكارهم للعدوان البشع . . يوما بعد يوم ، وانضم اليهم كثيرون من جماعة الأذكار والأناشيد الدينية . . وبالأمس وقف على المنبر واحد منهم ، واعترف بأن صلات كثيرة حدثت بين شيخ البلد وشيخهم ، وأن الشيخ على نفسه حضر اجتماعات فى بيت شيخ البلد ، وأعلنوا براءة الدين وبراءتهم من هذه الجماعة . . وفى عصر اليوم استطاع عشرون من شباب الأزهر وجماعة الاذكار أن يهاجموا بيت الشيخ على ،

وحملوه حملا إلى الأزهر ، وأمام التهديد الحانق بتمزيق جسده اعترف الشيخ على بكل شيء . .

وفى لحظات خاطفة حضر بعض شيوخ الأزهر ، ومضت مظاهرة إلى الكنيسة الكبرى التى كان سركيس يهيج فيها الخواطر . . وتردد من خارج الكنيسة هتاف واحد : « الدين لله والوطن للجميع » وتجاوبت جدران الكنيسة بالهتاف الرائع . . وخرج الذين فى الكنيسة ومضوا جميعا إلى الجامع الأزهر . . ووضع الأقباط على رؤوسهم عمائم الشيوخ ، ولبس كثيرون من شباب الأزهر قلانس رجال الدين المسيحى .

وشهد المسجد العتيق فيضا من عواطف الأخاء لم يشهدها من قبل ومضى الأقباط والمسلمون يتعانقون . . بينما وقف شيخ عجوز على المنبر يعلن أن المسلمين سيتبرعون لبناء الكنيسة من جديد على الرغم من الجوع الذى يعيش فيه الجميع ! . . وقال أحد التجار : « إننى أتبرع للثورة والكنيسة بنصف ما فى حانوتى » ، ثم انهالت التبرعات . . وإذ ذاك تقدم فتى أزهرى يطالب بمحاكمة الذين أثاروا الفتنة ، وأفتى بأن دماءهم مهدرة بحكم الإسلام وتعالت فى المسجد صيحات التكبير وهتافات للوطن . . والثورة !

لقد وضح عندهم جميعا الساعة ، أن الذين دبروا الفتنة هم أعداء الثورة فانسكبوا صفا واحداً من المسجد إلى شيخ البلد ، يطالبون برأسه . . برأس الوالى .

وإذ سمع الوالى من رئيس الشرطة هذه الأنباء انتفض مروع القلب وصاح فى شمس : « إذهبى إلى شيخ البلد سريعا . . اقتليه بهذا الخنجر قبل أن يقع فى أيديهم ، فيبوح بكل شيء ! »

وانطلقت الجياد الفارهة بالعربة المذهبة خلال الطرقات ، ولكن الطرقات كانت مزدحمة بالمشاعل ، والرجال المتوقدين . . ولم تستطع «شمس» أن تقبض نظراتها منهم هذه المرة ، ولكنها ظلت ترتجف ، ورائحة العرق الكريه تقتحم عليها العربة وروعت برأس « شيخ البلد » تخفق أمامها على رمح طويل . وكانت الجماهير الثائرة تطالب إذ ذاك بالرأس الثاني !



دخول الظافرين



عادوا صفرا مهزولين يقطر الرعب من وجوههم كأشباح الزمان القديم . أما الآخرون فقد استلقوا هناك ، على رمال الصحراء ، خرساً ممزقين ينزف من أشلائهم سر مأساة هذا الزمان الجديد

على أن أسرار المأساة أخذت تضطرب بين الألسنة والآذان فى كل مكان . وعند ما رواها الذين عادوا وشيكا من «التل الكبير» ، اصطدمت الأرض والسماء باللعنة على الخونة ، وسكب العجائز الدموع ، وفغر الصغار أفواههم الغضة مذهولين

ولم يعد شيء على الإطلاق خافياً على أهل القاهرة . «فابراهيم» يروى نفس قصة « عبد الله » ، و «فرج» يرتعش عند ما يحكى ، تماما « كالأسطى على » ، و « الأسطى على » كالآلاف فى المدن والقرى :

وقد عاد « الأسطى على » يلهث من الحنق والأعياء ، ويفح بدعائه فى أهل الحارة لحيحاً مؤلماً أن يخرجوا جميعاً إلى مداخل القاهرة ليردوا عنها جيش الاحتلال الذى يزحف وفى طليعته الخيانة : كلبه الحارس الأمين.

ولم يكن « الأسطى على » قد غاب عن القاهرة أكثر من شهر واحد ، أغلق فيه دكانه ، وحمل البندقية مع جيش عرابى تاركا طفله وزوجته ، وأمه التى ما زال يواسيها منذ أعوام طوال ، وما يرقأ للعجوز دمع منذ مات زوجها وهو يحفر القناة

كانوا فى القرية إذ ذاك . . وكان « على » صغيراً لا يستطيع أن يحمل المعول ، ولعلهم من أجل هذا تركوه يعيش . وما أنظع ما عاش بعد ذلك ظل وهو يلعب فى الطين — مع الأطفال والذباب — يشاهد جنوداً

يهبطون فجأة فيختفى الأطفال من الطرقات وترتجف القرية بأسرها من الرعب وهى تهمهم «الحكومة ! الحكومة» . ثم يتدحرج عشرات الرجال على الطرقات الخالية : الرءوس منكسة ، والأيدى مشدودة إلى الحبال ، والسياط تشوى الظهور ، وتدفعهم دفعاً إلى بعيد . . ليحفروا القناة

ولقد تعلمت القرية أن الذين يذهبون إلى القناة لا يعودون ، ومع ذلك فكلما هدأ نحيبها بعض الشيء ، عادت السياط تفرقع فوقها من جديد.. ويمضى موكب آخر إلى حيث لا يعود

ولن ينسى «على» أبدا كيف كان نساء القرية يلتقين على أبواب الدور فى الصباح فيتذاكرن الرجال ويبكين حتى يرتفع النهار

لقد عاش بينهن يبكى كل صباح ، حتى أخذته أمه ذات يوم إلى خارج القرية . . إنه ذلك الطريق الطويل الضيق وسط الحقول . . لقد تعثر فى منخفضاته وبكى فحملته أمه ثم عادت تلقيه إلى جوارها على الأرض وهى تستريح من عناء السير ، حتى انتهت بها الرحلة إلى ميدان فسيح يستلقى تحت أقدام « قصر الباشا »

واستطاعت بعد نقاش طويل مع رجال غلاظ أن تدخل إلى القصر.. وكان الفلاحون يقولون عن سيدة هذا القصر إنها امرأة طيبة تعرف الله

واستقبلتهما السيدة فى إشفاق وترحاب ، غير أنها سحبت يدها فى سرعة واشمئزاز من يد أمه التى شرعت تقبل اليد البضة فى خشوع وضراعة

لقد قالت أمه لسيدة القصر إذ ذاك كلاماً طويلا ما زال يذكر منه كلمات « الجوع » ، و « الفضيحة » ، و « الستر » . وردت عليها السيدة بكلام لم يفهمه هو ، فقد خيل إليه أنها تتحدث بلغة أخرى غير لغة أمه والفلاحين !

وأقامت أمه فى القصر . ولم تعد تلبس الجلباب الريفى الأسود إذ

دفعوا إليها بثياب أخرى ملونة . وبعد حين سافرت سيدة القصر البدينة البيضاء إلى القاهرة ومعها خدم كثيرون بينهم أمه . . وفى القاهرة رأى السقف المذهب ، والجدران التى تزينها الصور ، والأرض تلمع من تحت قدميه . . وذاق خبز القمح

على أية حال ، لقد أصبح الآن شاباً يتقن صناعة الأحذية ، وقد اتخذ له دكاناً ، وأنقذ أمه من الخدمة فى القصر . وقد أصبح أباً بدوره لا يسمح لابنه بأن يلعب فى الطين ، وفى عزمه ألا يمضى أبداً فى الطريق الذى مضى فيه أبوه

وإنه ليجلس كل مساء على مقهى يجاور دكانه . . وفى المقهى تعرف بشبان يتحدثون دائماً عن صحيفة سرية تكتب كلاماً يبهره حقاً . . . إنها تحذر المواطنين المصريين من كبارهم الذين يشاركونهم عداء تركيا . . فقد كان هؤلاء إلى عهد قريب أتباعا لتركيا ، وهم يتمتعون بكل ما فى الطغيان التركى من قسوة وجمود . . . ولكنهم أذكياء ، فتركيا الإمبراطورية الهرمة تتهاوى اليوم حجراً بعد حجر ، بينما تزحف انجلترا بكل فتوتها وغناها الواسع لتأخذ مكانة تركيا فى مصر . . ولئن كانت فرنسا تنافسها ، فان انجلترا لا تبالى كثيراً بهذه المنافسة ، فهى أضخم قوة اقتصادية فى العالم ، وقد استطاعت أن تشترى حصة مصر من أسهم قناة السويس ، وقد منحت مصر كثيراً من القروض بدعوى تحسين حالتها الاجتماعية أول الأمر ، مؤكدة أن القرض ليس إلا مساعدة اقتصادية ، ثم بدأت تزحف لتراقب تشريعات مصر وسياستها ، بدعوى ضمان تسديد الدين ، وحماية الدائنين . . لا أكثر

وإن المصانع الانجليزية لتغرى السادة المصريين بأنها هى وحدها التى تستطيع أن تشترى منهم كل ما يزرعون من قطن ، وتمنحهم بهذا أرباحاً

ضخمة لا تستطيع تركيا المنهارة أن تحققها لهم ! وأصحاب هذه المصانع يملكون جهاز دولة ، تملك بدورها قوة عسكرية لا نظير لها . . . وإن لها من الأسلحة أفتكها وأحدثها ، وهذه القوة العسكرية تستطيع وحدها أن تحمي حقوق هؤلاء السادة فى أرضهم الواسعة ، وتستطيع على أية حال أن تحطم كل المحاولات التى تهدف إلى الانتقاص من امتيازات السادة أو القضاء عليها . . . إنها لتمكنهم من القبض على الفلاحين بيد من حديد ، وتمكنهم من القضاء على الأفكار الثورية التى تغلى فى صدور المثقفين ، والتجار ، وأرباب الصنائع ، وكل الذين هزتهم مبادىء الثورة الفرنسية وصيحات « جمال الدين الأفغانى »

وكانت هذه الصحف السرية تحرض الجماهير على أن تعلن الثورة على هذه الفئة من المواطنين التى تتآمر مع كل غريب يدعم لها ثروتها . ويوسع لها الميادين التى تستغل فيها الآخرين

وكانت الحلقات الضيقة تطوق هـــذه الصحف السرية وحدها فى أول الأمر ، ثم ما لبثت أن راحت تتسع شيئاً فشيئاً فتضم التجار ، وأصحاب الحرف ، وأصحاب العقارات الصغيرة ، والعلماء والمثقفين . . وهى فى كل يوم تزداد اتساعا كالدوامة فى الماء الهادىء ، لا شىء يوقفها على الاطلاق

• • •

وعند ما نشبت الثورة العرابية اتضح لعلى ولآلاف غيره أن بعض الذين قاموا يندددون — مع الحركة الوطنية — بطغيان — الشراكسة ، وقفوا اليوم يدعون لانجلترا ! . . . وعبيد المصالح يستطيعون دائما أن ينبذوا الصيد الهرم حين يلوح لهم صيد آخر أكثر مالا وأعز نفراً ، وهكذا التقطت انجلترا بعض من كسبوا ثقة الناس ليرددوا على الناس رحمة المولى الجديد

وكان الطيبون من أهل مصر يطالبون جماهير الشعب على الدوام بأن تقف صفاً واحداً أمام عدوان الترك ، غير أن الثورة فى اضطرامها قد أوضحت للناس أن هناك فئة لابد أن تعتزل الصفوف. فقد زحفت النشرات الرسمية تطلب من أهل مصر أن يتركوا الانجليز ليدخلوا آمنين ، فما اقبلوا إلا لحماية السلطات الشرعية فى البلاد من العصاة العرابيين !

وكان العصاة العرابيون إذ ذاك هم كل مصر ! ووجدت مصر نفسها وجها لوجه أمام أعدائها المحددين . لقد أعلنوا بالأمس مع مصر غضبهم على الشراكسة ، ولكنهم اليوم لايستطيعون أن يقفوا مع الشعب أكثر مما وقفوا . فهم يستعينـــون بالجيش الأجنبي ليحيي سلطانهم المخيف على الحقوق ! .

ومن أجل هذا أفسحوا الطريق أمام الجيش الانجليزى ، فباغت جيش الثورة فى التل الكبير. وبدأ الجيش الانجليزى يتحرك بعد انتصاره الشائن. وتحركوا مع الجيش ليدخلوا القاهرة دخول الظافرين !

وكانت القاهرة تموج بالذين من « التل الكبير » وتعض أصابعها من الحسرة والندم . . . لكم أخطأت فى تلك الأيام ! ! .

لماذا لم تمض بالكتاب إلى أجله عندما أصدر شيخ الإسلام بياناً يعلن فيه أن الحكومة الشرعية ـــ منذ اعتمدت على الانجليز ـــ لم تعد فى حكم الله صاحبة حق شرعى على مصر ؟ .

ألم توقع مصر كلها على هـذا البيان ؟ ألم يضع عليه الفلاحون بصماتهم وأختامهم وبصمات النساء والأطفال أيضا ؟ .

لماذا سكتت ثورة الشعب بعد هذا عن أعداء الشعب ؟ .

إن الدماء الحرة على ثرى الاسكندرية ، وعلى رمال البحيرة والشرقية ، ستظل على الدوام تلعن الذين خانوا ، والغافلين على السواء .

ومع ذلك فقد بقى هناك ما يصنع .

وأخذت الأزقة الضيقة ترمى بمن بقى من أهلها إلى الروابى المشرفة على مداخل المدينة الكبيرة . . لقد أريد للقاهرة أن تركع بعد حين أمام قدم المحتل فوق أوحال الخيانة ، غير أنها ترفض هذا المصير . . . ربما غلبت على أمرها لبعض الوقت ، غير أنها لن تلطخ نفسها بالوحل أبداً .

. . .

وسرت نسمات سبتمبر مثقلة بالزفرات ثم بدأت تهتز بالأسلحة يلوح بها الرجال والنساء . . . وكانوا يهمهمون فى عجب : « كيف تطلب منا الحكومة أن نرحب بالانجليز ؟ . . كيف نقول إن الانجليز هم أحبابنا . . »

ومن بعيد لاحت عربة مذهبة تلمع تحت الشمس . . وقال رجل : « انظروا إنهم يقبلون ؟ » وتهيأت السواعد والأبدان ، وتقدمت امرأة عجوز إلى قمة الربوة ، ثم صاحت بصوتها الحاد : « لا . لا يا أولاد . . إنهم رجالنا ! » ولكنها لم تكن تستطيع أن تسخر طويلا ، فقد أخذت تلطم وجهها بعد ذلك وهى تكرر : « رجالنا . . رجالنا ! »

وكانت بعض الطرابيش المصرية بالفعل تهتز على رءوس رجال الحكومة والحراس الذين يحيطون بالعربة المذهبة . . واحتدم الغيظ الكافر بالقلوب المصرية المعذبة التى تنتظر على الروابى ، فتوالت القذائف وإذ ذاك أسرع موكب الكبار ليشق طريقاً آخر ، وترك فصائل عديدة من جيش الاحتلال تطلق أسلحتها الحديثة الفاتكة على الذين يشوهون جلال الاستقبال !

وعندما قرعت سنابل الخيل أرض القاهرة مطلولة بدم شهداء التل الكبير كانت طبول الحكومة تقرع احتفالا بدخول الظافرين ! غير أن هذه الطبول فى رنينها العريض الأجوف لم تستطع أن تغمر عويل النساء ، وصرخات النكير . وإذ انحنى السادة على يد القائد الانجليزى فى ساحة بعض القصور

انحنى « على » ليلتقط المطرقة الحديدية . . وحاول أن يسرع إلى الباب ، فسألته أمه : « إلى أين ؟ إلى الدكان ؟ » ولم يجب « على » . ونظر إلى ولده الذى يلهو ، ثم سلمه المطرقة وترنح قليلا . ثم اعترف لأمه بأنه لا يحتمل جراحات صدره بعد . !

وهوى على ينزف منه الدم بينما كان والده يلوح بالمطرقة فى فضاء الزقاق المترب . أكانت إرادة الثورة تهتز فى قبضات الصغير ، وأبوه يستلق ليتخذ مكانه بين الشهداء ؟ !




تلك
الحرب

لم يكن فى الحقول شىء أخضر على الاطلاق . . غير أن الفلاحين أصبحوا ذات يوم ، فوجدوا أرضهم القديمة السوداء مزدهرة بأعواد الذرة الجديدة الصغيرة . . كانت ريانة غضة تضحك . . كالأطفال !

وكأن الفلاحين لم يشاهدوا قبل اليوم هذه الحياة التى تنبت من الأعماق.. فلاح لهم اخضرار الأرض التى اسودت بشقاء أيامهم والليالى كأنما هو شىء جديد عليهم حقاً . . !

وبعد صلاة العصر جلسوا على كوم من التراب أمام المسجد تحت الظلال يتحدثون عن الأزمة التى تعانيها القرية ، فقد كان يجب أن تدبر القرية أمر خمسة قناطير من السمن ! . . ولكن القرية وهبت كل شىء . . وهبت كل ما فيها من دجاج وبيض وطعام ، . وحتى الشباب ولم يعد فيها من الرجال غير قلة من الرجال العجائز . . وإنهم ليعجبون اليوم لهذه الأرض الطيبة التى ما زالت ترحم شيخوختهم على الرغم من كل شىء .

وقال فلاح عجوز . « عجيبة يا ناس ! » فجاوبه فلاح آخر : « دى بركة الشيخ جوده . . بركة سيدنا الشيخ ! »

فنظر « الشيخ جوده » باسماً وقال بصوته الهادىء الوقور : « ما بركة إلا بركة سيدنا عرابى . . وبركاته كثيرة بإذن الله ! »

فقال الجميع فى نشاط مشرق : (أى والله !) أى والله بركة سيدنا عرابى . . الله ينصره على الظالمين .)

وتحسس (الشيخ جوده) لحيته البيضاء وهو يتأمل وجوه الفلاحين ضاحكا مطمئنا ثم قال : (الضيق آخره الفرج . والخضرة دليل الخير . . فرجت بإذن الله ، وإن شاء الله ندبر السمن !) .

ورد الجميع فى لهفة : (إن شاء الله . . بحق جاه المصطفى) .
وأخذ الفلاحون يقلبون أنظارهم بين وجه (الشيخ جوده) وبين الحقول الممتدة إلى نهاية الأفق . أن المعركة لتدور هناك وراء هذا الأفق وأن لهم فى المعركة لأخوة وأبناء وآمالا عراضا ! ستفتح لهم هذه المعركة عالماً جديداً من الراحة ! . . لو أن (عرابى) ينتصر فلن تمر عليهم إذن أيام جديدة من الشقاء . . لن يعرفوا الجوع بعد . . ولن يساقوا مرة أخرى — لاهم ولا أبناؤهم — تحت وهج الشمس وقرع السياط ، يضربون بفؤوسهم الصخور ، ومن حولهم يتساقط الموتى ، والعرق يختلط بالجثث كتلك الأيام المشئومة فى حفر قنال السويس !
لو أن عرابى ينتصر ! . .
لقد عاد (الشيخ جوده) أخيراً من ميدان القتال يحمل إلى القرية أطيب الأنباء ولكن يطالبها بخمسة قناطير من السمن ! .
و (الشيخ جوده) رجل مبارك تعرفه هذه القرية والقرى المجاورة وهو يطوى حياته مثبت العين على الضريح الذى يقيم فيه أجداده ليصبح مثلهم — بعد عمر طويل — ولياً من أولياء الله .
وفى الأيام الخالية كان (الشيخ جوده) يشهد بنفسه كيف يضطرب كل شىء فى القرية التى هبط عليها ببغلته الفارهة ، فالفلاحون يتسابقون على يديه يقبلونهما ، والسعيد من استطاع أن يصب له الماء عند الوضوء أو يحمل الماء عنه ، ولا يكاد المساء يزحف على القرية التى ينزل بها (الشيخ) حتى تمتلىء سماؤها بالدخان مثقلا بعطر الشواء والأوز !
ولكن الأحداث الجسام تهز القاهرة والاسكندرية جميعاً . ويصب الانجليز لجأة رصاص مدافعهم على الاسكندرية الآمنة ، ويقتلون الأطفال والنساء والرجال بغير حساب ، ويهدمون مساجد الله !
وتطرب حكومة مصر لهذا ، وتطالب الانجليز بمزيد من الأعمال

الوحشية لتحمى نفسها من شعب مصر الذى اصبح كله فى تقديرها مجموعة من العصاة !. وهكذا استعارت أظفار الأسد البريطانى وأخذت تنشبها فى عنق البلد الأمين !

ولم تكن فى مصر إذ ذاك سفارة أجنبية تستطيع أن تطلب من أحد رجال الدين حكما على الشبان الوطنيين بأنهم يعملون ضد تعاليم الإسلام. ولو طلبت لما وجدت ؛ فقد كان رجال الدين فى ذلك الزمان يخلصون لله وحده ، ومن هنا أعلن شيخ الإسلام ومفتى البلاد وكل علماء الدين أن حكومة مصر قد فسقت عن أمر الله ، وأنه لاطاعة لها فى معصية الخالق فالجهاد أمام هذه القوى الطاغية المؤتلفة من حكومة مصر والانجليز إنما هو جهاد فى سبيل الله .

ويترك الشيخ (جوده) أوراده التى ينتقل بها بين القرى ليتلوها على الناس فى الموالد ، ويترك بغلته الفارهة ، ويترك عشرات أمثاله كل شيء ويحتشدون جميعا للحرب المقدسة تحت لواء (عرابى) ضد أعداء الله والوطن . .

ويزحف من كل قرية شبابها بفؤوسهم وعصيهم ، إلى المعركة .

وينعقد الدخان فى سماء القرى محملا بعطر الشواء والخبز ، ولكن الجنود فى المعركة .

ويتحول الريف المصرى المهزول إلى منبع خصب فياض يرسل الطعام والحديد والانسان ، إلى تلك الحرب المقدسة . . .

و (الشيخ جوده) وعشرات أمثاله يؤدون دورهم خلف الصفوف ينتقلون من الميدان إلى القرى ، وكلما هبط واحد منهم أرض قرية صاح فى طرقاتها : (يا أهل البلد ، الجيش بخير ، لعنة الله على الظالمين ، مطلوب منكم الخبز والطعام ! » ، ولكل بلد حصة مفروضة تؤديها فى حماس هائل.

ولكن قريتنا هذه المسكينة لم تعد تستطيع أن تؤدى القناطير المطلوبة

من السمن . . . وكان الليل يتقدم . . . والشيخ جودة ينظر إلى وجوه الفلاحين العجائز .. وخيم صمت طويل يحلله الأمل المبهم ويقطعه السعال..

كانت أجسادهم المعروقة السمراء التي أنهكها الكدح الطويل تختلج بالأنفاس واللهثات وهم يسعلون وينظرون إلى الأرض في انتظار معجزة

ثم أخذوا يرتلون أغنية حزينة من دموع أيامهم . . . وفي آخر كل مقطع من الأغنية دعاء حار متوسل إلى الله أن ينصر « عرابي » ، وأن لعنة الله على القوم الظالمين

وقاموا إلى الصلاة مرتين . . وبعد أن فرغوا من صلاة العشاء ومن الدعاء لجيش مصر عادوا يجلسون أمام المسجد وقد أخذت نسمات سبتمبر تصافح الوجوه . . والأنسام على أية حال تصافح الوجوه ، ولا تستطيع أن تميز وجوهاً دون وجوه

وحمل إليهم الطعام . . لم يكن كما تعود « الشيخ جوده » . . . بل كان خبزاً مقدداً وقطعاً متحجرة من الجبن القديم والبصل الجاف . .

ورفعوا أيديهم عن الطعام فحمدوا الله ، وعاد الصمت والظلام يخيمان على الجميع . .

. وقال الشيخ جوده في رنته الوقور : « الآن علم الله أن بكم ضعفاً فخفف عنكم » ولم يجبه أحد . .

ربما غفر الله لهم . . ولكن ماذا يستطيع الجيش أن يصنع . . أيمكن أن يستغني عن حصة القرية في هذه القناطير من السمن ؟ . .

. . .

وهم الشيخ جودة بالقيام ، وتحرك الجميع . . وهم ينظرون إلى ما وراء الأفق البعيد . . حيث تدور المعركة . .

وفي السماء لاح ضوء خاطف أحمر . . ودعك « الشيخ جوده » عينيه وفتحهما وهو يستعيذ بالله . . وقبل أن يقول كلمة صاح فلاح عجوز : « الله

أكبر . . . انفتحت طاقة السماء . . . وتساءل الشيخ فى عجب : « أترون معى ؟ . . ما هذا يا أولاد ! »

وارتفعت الأصوات . . ليلة القدر يا سيدنا الشيخ ! ! . . أدعوا . . أدعوا الله يا ناس . . اللهم أنصر عرابى — اللهم قدرنا على أرسال السمن للجيش — اللهم . . . »

وقال الشيخ مستنكراً : « قدر ؟ ! . . أين نحن من ليلة القدر ؟ »

وأخذ الجميع يتطلعون . . وساروا قليلا والأضواء تسطع ثم تسطع وقد أصبحت طاقة من النور الأصفر تتخلله دوامات حمراء ، والأفق كله يرقص بارتعاش اللهب ، ومن بعيد كان سكون الليل يحمل أصواتاً مختلطة بأصداء أغنية ، وميز الفلاحون بعض مقاطع الأغنية ، كانت بالنصر لعرابى وجيش الوطن

وكان اللهب يتزايد فى الفضاء ، وعلى شعاعه المتوهج بدأت أشباح متحركة تلوح ومن ورائها سحابات الدخان فى السماء وسحابات الغبار فوق الأرض

وتبين « الشيخ جودة » صوتاً يناديه : « يا سيدنا الشيخ ، فرجت يا سيدنا ، سافر الليلة بالسمن ! ! »

وخرجت القرية برجالها العجائز ونسائها وأطفالها تستقبل هذا الموكب ، وعرفت القرية من ثنايا الموكب أصوات « عبد السميع » و « حسنين » و « عبد العليم » و « زكى الحاج » وبقية الرجال الذين يشتغلون فى تفتيش « الباشا » المجاور ، والذين تخلفوا وحدهم من بين شباب القرية عن المعركة منذ أقام الباشا عليهم الحراس الشراكسة الغلاظ يسوقونهم بحد السيف وقرع السياط إلى العمل فى حقوله

ظلوا ينحنون على أرض الباشا ويلعقون العرق ودماء الجراحات وهم

يعانون ما عرفته القرية جميعاً ، وهي تبحث للجيش عن خمسة قناطير من السمن .

ولقد تحدثوا إلى (الباشا) أن يقرضهم نظير عملهم هذه القناطير الخمسة من السمن فروع الباشا من هذه (القحة) وأمر أن يحبسوا بلا طعام فى حظيرة مهجورة للمواشى ، وأن يجردوا من ملابسهم ويقرعوا بالسياط ، وأقام عليهم عدداً من الشراكسة الغلاظ يعذبونهم الساعات الطوال

وانقضى النهار فأقسم الفلاحون أن يكون هو آخر نهار على دولة الطغيان !

وعندما تعب الحراس من التنكيل بالفلاحين العشرين انقض المساكين على جلاديهم ، واستطاعوا آخر الأمر أن ينتزعوا السيوف من الحراس ، وفتحوا أبواب السجن . . خسروا فى المعركة عشرة رجال وخرج العشرة الاخرون على أشلاء جلاديهم . . فوجدوا عشرات الإبل والبغال محملة بالزاد . . كانت هى أيضاً ستمضى إلى المعركة تحت جنح الظلام . . ولكن إلى الجيش الانجليزى

وكان إلى جوار هذه الإبل والبغال عصبة أخرى من فلاحى القرى المجاورة يساقون تحت سياط الحراس الشراكسة والمتمصرين إلى حيث يحملون الزاد لأعداء الوطن . .

وحين لاح الفلاحون المحررون والسيوف فى أيديهم أمام اخوتهم المغلولين صاح الجميع : (يحيا العدل ، يحيا عرابى !)

وروع الحراس الشراكسة ، وانقضوا بسيوفهم ، ودارت معركة صغيرة أختنق بعدها الشراكسة ووقف الفلاحون أمام ردهة القصر يهتفون لعرابى ، وللعدل .

وبعد لحظات كانوا يجردون الحظائر مما فيها من ماشية وخيل وإبل ، ويجردون المخازن من الغلال والسمن ، وكان الباشا يركض ـ ومن حوله

بعض الأتباع ـــ هاربين من طريق خلفى . . . وقد أصبح القصر شعلة من نار!

وعلى ضوء هذه النار سار الفلاحون إلى الشيخ جودة يقودون قافلة تحمل من الزاد ما لم تكن تستطيع أن تقدمه عشرون قرية مجتمعة

وكانت النار التى تشتعل فى أركان (قصر الظلمات) تملأ نفوس الفلاحين الرحيبة الساذجة بشعاع هادىء عجيب

وعانق (الشيخ جودة) كل الرجال ، وأخذ الفلاحون يتحسسون ظهور الخيل وأجساد الإبل وهم ينظرون فى عجب ذاهل إلى أكوام الزاد كمعجزة متقذة . .

ولم تنم القرية فى تلك الليلة .. فقد خرج النساء والأطفال ينشدون .. وهزت الزغاريد والهتافات أرجاء الليل . . . بينما كان الشيخ جودة ومن ورائه القافلة والرجال يسرعون إلى المعركة تحت شعاع الفجر

ونظر الشيخ جودة إلى الخلف فوجد أطفال القرى ما زالوا يسيرون فقال لهم ضاحكا :

ـــ ارجعوا يا أولاد . . سيأتى دوركم فيما بعد . .



في الصيف صادوا الحمام



كان الفلاحون فى الأجران يفرغون قمح السادة فى الأكياس الكبيرة فلم يكن الفلاحون فى ذلك الزمان يدخلون القمح فى منازلهم ، لأنهم فى الحق لا يصنعون به شيئا ، فالخبز المصنوع من القمح لا يأكله إلا الانجليز والسادة ولقد يعيش الرجل ويموت دون أن يعرف ما هو عيش القمح هذا ، وكان السادة يدركون هذا جيداً ، ويعرفون أن الفلاحين تفسد معداتهم إذا تناولوا شيئا غير الخبز المصنوع من الذرة ، وهم من أجل ذلك يحسبون دائماً حساب البهائم والفلاحين فى القـــدر الذى يجب أن يزرع من الذرة ، ومع هذا فطالما أقبل الخريف على قرى مصر وقد فرغت مخازن الفلاحين من الذرة وكان الفلاحون عندما يقبل الحصاد من كل عام يستقبلونه بلا بهجة ، فهم يعرفون أنه ليس حصادهم هم ، وأنهم ليشعرون دائما بأن هذا الحصاد ليس أكثر من دور آخر من أدوار الشقاء ، كالموتى فى بعض الأساطير : يسيرون من قبر إلى قبر وهم يرددون لعنة المولى الجديد !

وفى أول موسم الحصاد تجلل القرى أغنيات حزينة عن الذين ذهبوا إلى معركة الحرية ولم يعودوا ، وعن الحياة التى تسيل قطرة بعد قطرة وعن الكدح المهدر ، والأفق الذى تسوده بقايا دخان البارود وحسرات ضائعة على الأمن المسلوب ، ولا يكاد الحصاد ينتهى حتى تسكت الأصوات ولا يبقى فى كل القرية غير أعصاب متعبة ولهيب الشمس ، والحمائم البيضاء تلقط حبات القمح فى أمن ولا تريد أن تبرح الأرض .

وقد جلس بين الحمائم طفل فى الثالثة حافيا ممزق الثوب لا يستطيع بعد أن يمسك فأساً ، كان على الرغم من الفقر نفسه جميلا عذب المنظر

وكان يضحك ويرفرف بيديه بين الحمامات ، ويمد إليها حبات القمح فتلتقطها منه ثم تثب على رأسه فيغمض عينيه وهو يستغرق فى قهقهة طلقة رائعة ، إنه مهما يكن من أمره يتمتع بالطفولة ، هذا الشيء الذى يعطى حياتنا لون الورد !! وكان الجنود الإنجليز الذين أقبلوا لصيد الحمام يرون هذا المنظر والضيق يملأهم ، إن الحمام لا يريد أن يطير عن هذا الطفل والشمس تلفح الوجوه والرؤوس . أتراهم يعودون إذن بلا صيد ؟

وفرغ صبرهم فالتقط واحد منهم قطعة من الطوب ورمى بها الحمام والطفل ، وفزع الحمام ، فبكى الطفل ، والتفتت إحدى القرويات على بكاء الطفل وعلى صوت الطوبة التى حركت ذلك الصمت . وتلفتت من حولها تبحث عن أمه وعن أبيه فلم تجد أحداً ، ففى معركة الحياة المريرة التى يعيشها الفلاحون ، وفى نضالهم اللاهث مع لقمة العيش من أجل أطفالهم ينسون أحيانا هؤلاء الأطفال ، كانت أم الطفل فى مكان بعيد وراء حزم القش تنحنى على التراب لتصفى منه حبات القمح المتناثرة ، وكان أبوه يحكم ملء الكيس ، ولئن لم تنحنى المرأة على التراب لالتقاط حبات القمح ولئن لم يحكم الرجل ملء الأكياس ، فلا يدرى ماذا يمكن أن يحل بهما من عقاب !

ونادت القروية : « ياأم مصطفى . إلحقى ابنك . » ولكن أم مصطفى لم تسمع ، ومضت القروية إلى الطفل .ورفعت عينها إلى الفضاء. وفى ساعات العمل ولا يكاد الفلاحون يجدون وقتا ليرفعوا عيونهم إلى الفضاء !

وعلى الطريق أبصرت خمسة من الجنود الانجليز :السلاح فى اليد والعيون مثبتة على الطفل . وذهلت القروية . ولم تدر ماذا تصنع . ولم تستطع حتى أن تصرخ .

وألحت على رأسها صورة ثقيلة فادحة من فاجعة «دنشواى.» ولاحت أمام عينها خيالات قريتها . أيمكن أن تسيل فيها الدماء ؟ . وتحسست جسدها هي ، أيمكن أن يصنع بها الإنجليز كما صنعوا بأخواتها من نساء دنشواى ؟. ولهثت من الفزع . فجلست على الأرض ورأسها بين يديها . كان القمح يملأ الدنيا باللون الأصفر . وبدا كل شيء أمامها أصفر . كل شيء حتى جلبابها الأسود رأته شاحبا كالموت. وعاد الحمام يرفرف حول الطفل ويثب على رأسه وعاد الطفل يمد يديه بالحبوب ويضحك ويضرب الهواء بذراعيه . ونظر الجنود الخمسة إلى الحمام وإلى هذا الطفل . وبعد . أيعودون إذن بلا صيد. أيفسد عليهم الطفل رحلتهم تحت الشمس ؟ ، وفجأة . انطلق صوت عيار نارى واهتزت الأجران كلها بالدوى الرهيب ؟ وانتفضت القروية جاحظة العينين وأسرع الفلاحون ينظرون . وكانت (أم مصطفى) هى أول من أقبل وهى صارخة بلهفة الأم : (مصطفى . ولد يامصطفى ! .)

غير أن مصطفى لم يرد . ولم يكن فى استطاعته أن يرد إلى آخر الزمان . وفى المكان الذى كان مصطفى يملأه بكل عذوبة الطفولة البيضاء. منذ لحظات.. كان الدم يسيل ! ..

وصرخت أم مصطفى: (ياولدى . قتلوك !!) ثم استدارت إلى الذين كانوا يجرون اليها من أقصى الأجران : (الإنجليز قتلوا ابنى . قتلوا ابنك ياأبو مصطفى .) لم تبك دموعا فقد كانت مازالت فى تلك اللحظات الأولى من صدمة الفاجعة قبل أن تفيض الدموع لتطفىء اشتعال الأعصاب . . كان قلبها هو الذى يزأر . وإنه لقلب أم !

ولم يقل (أبو مصطفى شيئاً . وإنما أخذ يجرى. ويجرى . ومن ورائه يجرى القرويون والقرويات ، لم يقفوا ليذرفوا دمعة على أشلاء الطفل الذى

كان يملأ يومهم المتعب بالضحكات والذى كان يتلقى مداعبتهم جميعا كلما أنهكم التعب وتحمل ابتسامته إلى قلوبهم برد السلام .

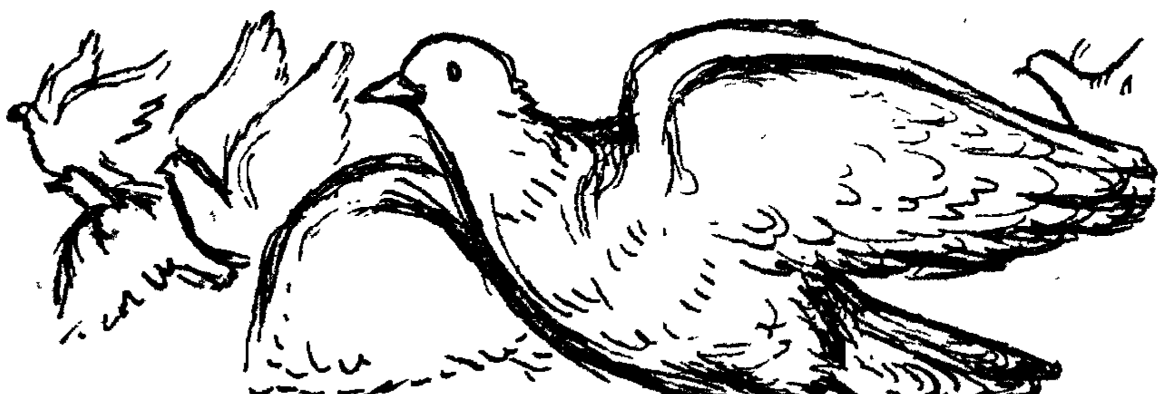
كانوا يسمونه (مصطفى كامل) . . . وكان كل واحد منهم يرى فيه الأمل الذى لم يستطع أن يعيشه هو . . ولكنه قد مات . . قتله الجنود وهم يصطادون الحمام ! . . ووقف الجنود الانجليز على البعد يتضاحكون وقال أحدهم : (خمس حمامات . .) فقال آخر : (بل أربع والطفل) فقال الثالث : (لا . . لا . . لقد كسبت الرهان . . . الطفل . . . وخمس حمامات !) ثم أقبلوا مستضحكين ليروا من هو الذى كسب الرهان ! وكانوا فى تقدمهم العابث قد بدأوا يشاهدون موكب الفلاحين يجرى إليهم وعلى الوجوه أحمرار مخيف ! . . . ولم يكن بين الفلاحين والفلاحات من يحمل فأساً أو عصا أو بندقية .. ومع ذلك فقد أدرك الجنود أن هؤلاء الفلاحين أقبلوا منتقمين لمصرع الطفل . . فأطلقوا الرصاص

ومع هذا ورغم الضحايا فالفلاحون يتقدمون ! . . وأخيراً التحموا مع الجنود . . فأمسكوا بخناق واحد منهم وانتزعوا منه بندقيته .. وسقط هذا الجندى تحت الأقدام . وبدأ الفلاحون يطلقون النار . . . فسقط جندي . . وغنموا بندقيته . . وفى لحظات كان الثلاثة الجنود الآخرون قد سقطوا . . !

واختلطت دماء الأحرار بدماء الانجليز . كانت كلها دماء بشرية ، وكانت الأجساد الإنسانية تستلقى هامدة مشوهة أمام نفس المصير ! . .

وفى اليوم التالى لم يستطع واحدمن السادة المصريين أن يطالب بإبادة تلك القرية من مديرية الجيزة . ولم يستطع الانجليز أن يمارسوا فيها وحشية « دنشواى » ، لا لأنهم خجلوا من صرخات الضمير المتحضر فحسب . .

بل لأنهم أدركوا أن لا طائل من وراء ما يصنعون، فلينازلوا هم، وليرجعوا خطوة ! . . وهكذا أصدرت القيادة البريطانية للجنود أمراً تحرم عليهم صيد الحمام ، وتحرم عليهم الاقتراب من القرى ، وبعد أن دفنت القرية ضحاياها ، ومصطفى ، عادت تداعب الأطفال الآخرين ، وترى فى بريق عيونهم نور الغد الجديد وعادت الحمامات تحلق فوق القرية ، بيضاء كالأمل نشطة رفافة كالمعركة ، طيبة . . كالسلام . !





الى لهم متلطفا : (عودوا إلى الحقول .. عودوا الله يفتح عليكم) .. فلم يتحرك أحد .. وعاد يقول لهم فى لهجة أكثر حزماً : إن ســـعداً لن يعود من المنفى ، وإن الذين سيتركون الحقول بعد اليوم لن يتناولوا أجراً على الإطلاق) ، فظلوا جامدين : الفؤوس فى الأيدى ، وعلى العيون ظلال ، ظلال كآبة تخفى الشرر .

وسأل أزهرى شاب رفع رأسه لأول مرة فى وجه الباشا : (لماذا لايعود سعد من المنفى ؟ سنعيده نحن بإذن الله) فارتفع صوته بنبرات جليلة تخالطها القسوة والمخاوف : (إن سعداً يتلقى المعونة من البلاشفة الحمر الذين يحاربون الدين ، والذين أطاحوا بالقيصر وأقاموا المشانق لأمرائهم وأسيادهم . . ! لقد أرسلوا إليه يؤيدونه فردعليهم شاكراً هذا التأييد ..) فاندفع من الزحام عامل يقول : (وماله ؟) .

وقال الأزهرى الشاب فى سخرية مفحمة : (وماله ؟) وأجاب ثلاثة عمال آخرون يقيمون فى قريتهم منذ إغلاق المصانع التى يعملون فيها : (وماله يا باشا ؟) وهمهم الفلاحون (يحيا سعد) واهتز عرق أزرق فى جبين (الباشا) وارتعشت السلسلة الذهبية الغليظة على بطنه المتكرشة ، وصرخ بكل بدنه المترهل (أخرج ياكلب انت وهوه ، أجلدوهم ، ، اخنقوهم) وكان السادة فى مصر إلى ذلك الزمان قد اكتسبوا وحدهم الحق المشروع فى أن يقيموا المشانق للناس كيفما شاءوا : وما برح الباشا يصيح (أخرجوا .. أخرجوا) ، حتى اهتزت ساحة القصر بهتاف واحد :(يحيا العدل) وبادر إلى الباشا زائره الإنجليزى ، وإذ أشرقت طلعته المطمئنة

على الوجوه المتشنجة السمراء ، جحظت العيون ودمدم الهتاف بسقوط (الانجليز) و (برادع الانجليز) .. ودهم (الباشا) خجل مرير يضرمه حنق هائل ، فوضع يده فى جيبه ليشهر مسدسه ، غير أن الزائر الانجليزى الكبير جذبه من يده فى رفق وثقة ، وهو يهمس فى أذنه بكلمات أنماها فى الفضاء الواسع الذى يستلق خارج القصر الضخم عن بيوت الفلاحين ؟ وتابعه الفلاحون إلى باب العربة ، وانطلقت العربة بالباشا وصديقه الانجليزى ، والفلاحون يهزون صمت الأفق الحزين بهتافهم : (تحيا الحرية يحيا الوطن) كان الغلاء فى تلك الأيام يطحن حياتهم وحياة إخوانهم فى المدن كما تطحن الأحجار حبات الذرة التى يحصلون عليها للطعام بعناء طويل ولم يكن للوطن والحرية عندهم غير معنى واحد : الحياة الإنسانية الكريمة التى لا ينهشها الغلاء ، ولا يهدها المرض ، ولا يروعها الجوع ، ولا يلوثها العار ، ولا تخيم عليها الظلمات ولا تهبط بالناس هذا الهبوط كله عن مستوى الكلاب المدللة فى بعض القصور وفى الطريق الذى تستلق عليه الحقول الشاسعة النابضة بالخضرة ومآسى الذين صنعوا لها خضرتها ، قال الصديق الانجليزى : (يجب أن تتعلم كيف تضبط أعصابك فى مثل هذه المواقف .. وإلا استولى عبيدك على مقرك ومزارعك كما حدث لآخرين) فقال الباشا فى قلق منفجر (إنها مصيبة ، ، فالدهماء ما زالوا يتحكمون ، ، وعلى الرغم من كل القوانين فما زال نظام الحكم فى خطر ، ، وسعد لا يريد أن يفهم أنه يلعب بالنار قلنا له هذا ألف مرة ، ولكنه عنيد وهو يترك الفلاحين يحركونه ويدفعونه إلى حيث يتهاوى ظام الحكم على رؤوسنا جميعا ، ، إنه ليتملق الدهماء .. يتملقهم ، وربما ضحى فى تملقه هذا حياتنا .. هذه مصيبة !) .

وكان نظام الحكم فى ذلك الزمان بأن تجثم جيوش الاحتلال على الأنفاس لتحمى لأصحاب المزارع الكبيرة الحكم الوحشى على المعذبين فى الحقول ولتحافظ على رؤوس الأموال الانجليزية التى تتمدد خلال شركات عديدة

تسلب يوما بعد يوم أقوات العمال والموظفين والطلاب وصغار التجار والمنتفعين وأصحاب المهن . لم يكن كل هؤلاء فى الميزان يساوون شيئا بالقياس إلى الحفنة القليلة التى تزرع القطن وتصدره إلى المصانع الانجليزية وعلى الرغم من أن القوانين كانت تشرع دائما لحماية هذه الطائفة ، وعلى الرغم من أن السجون قد امتلأت بالأحرار، والقبور قد ضاقت بالأموات والأحياء على السواء ..على الرغم من كل هذا فقد انقضت الجماهير العديدة فى المصانع والمدارس والطرقات والمكاتب معلنة — فى عجزها عن مقاومة الغلاء إنها لن تريق حبات العرق منذ اليوم لتتبلور فى عقود الماس ، ولن تهدر دماءها بعد ليلجس الآخرون على أكياس الذهب وزلزلت الأرض تحت أقدام سادة الأرض ، فأخرجوا « سعدا » من أرض الوطن ،ومضوا يخادعون الناس عن حقيقة الصراع ، وطالبوا الناس أن يلتزموا الهدوء فتصايحت الجماهير : « لحساب من هذا ؟ ؟ ولماذا نرضى بحياتنا هذه التى لا نملك فيها شيئاً غير الأغلال والهوان ؟»

وعادوا يطالبون الجماهير بأن تقف معهم صفاً واحداً ، وسيفاوضون هم حكومة الانجليز .. فقهقهت الجماهير ساخرة . . وما كان للذين استضعفوا فى الأرض أن يأمنوا للذين ساموهم عذاب الحريق .. وتجاوبت من وراء البحار فى الجزيرة البعيدة حيث يقيم الزعيم المنفى وصحبه ، نفس الصرخات التى أطلقتها الشوارع والمصانع والحقول: «كفى خداعا .. أطلقوا الأحرار من السجون .. ألغوا القوانين التى تكبل نضال الشعب .. لن يقف الضحايا أبداً فى صف واحد مع الذين يمتصون دماءهم . . إنكم والاستعمار عدو واحد ، ما دمتم له الاداة الجهنمية المشئومة . . » وإذ أيقنوا أنهم لن يخدعوا الشعب فى شىء ، أطلقوا جهاز الدولة بكل وسائله يضرب ويضرب بلا رحمة — وما كان جهاز الدولة من قبل قد توقف — وشرعت الصحف التى لا تعيش إلا فى الوحل — كالدود تنفث سمومها الشائهة فى بهلوانية

بارعة ، ، وانطلق ضابط مصرى يربط الثوار إلى ذيل حصانه ويعدو فى شوارع القاهرة ، حتى لتتمزق الأجساد المصرية قطعة بعد قطعة وهو سعيد مرفوع الرأس وإن كان ليحنى رأسه أمام ضباط جيش الاحتلال ليتلقى منهم النياشين وأخذ الجنود المصريون يضربون إخوتهم فى الدم والوطن والمأساة والأمل ومن وراء كل ذلك استمر جنود الامبراطورية يطلقون النار من الأسلحة الحديثة بلا حساب . . وإنهم هم أنفسهم لآباء وإخوة وأبناء أيضاً ، وقد خرجوا من الحرب العالمية وقلوبهم مثقلة بالجراح . . وإنهم ليحلمون أن يعودوا ذات يوم إلى أوطانهم فينفقوا ما بقى لهم من العمر سعداء آمنين بين الأمهات والآباء والزوجات والاطفال غير أن للإستعمار قضاء لا يرحم

عندما انتهت عربة الباشا إلى قصر المدير ،كان الرجل يتحدث مع رؤسائه فى القاهرةويتلقى منهم التهنئة لأنه مسيطر على الحالة . . فقد أحرق الانجليز القرى الثائرة جميعاً ، ولم يعـــد هناك من يجرؤ على رفع رأسه بالعصيان ! وصرخ الباشا فى المدير :

(ماذا تقول .. إن العصاة فى أرضى ليهتفون بالحرية !) وروع المدير من هذه المفاجأة . . .

وتحدث من فوره مع المفتش الإنجليزى واتفق الجميع على إرسال حملة من مائة جندى انجليزى لتؤدب القرية العاصية . والمدير ــ كالباشا نفسه ــ ينحدر من أب شارك فى فتح أبواب مصر أمام الجيش الانجليزى لتأديب عصاة ذلك الزمان !

ومن يدرى ؟ ! إن بعض الموتى ليحمل اللعنة من قبر إلى قبر . . ربما كان له اليوم ولداً أيضاً إن محتلا جديداً يجب أن يدخل مصر ليؤدب عصاة هذا الزمان ! !

وعلى أية حال فقد انحدرت الحملة بمدافعها الرشاشة إلى الطريق الزراعى.. والباشا ما زال يعجب لمصر كلها ماذا دهاها ؟ ! لقد كانت من قبل طيبة مع

سادتها . . كانت قرية مؤمنة ! ! ولقد غمرتها الدماء اليوم ، ومع ذلك فالمنشورات الثورية تتدحرج فى كل مكان كالطوفان . . والمظاهرات تملأ الطرقات .. والعمال يحاولون الاستيلاء على المصانع .. والفلاحون يكيدون للسادة .. ولجان الطلبة وجماعات المقاومة السرية تثب وتتحرك هنا وهناك كنبض القلب فى المعركة ! !

وقريته الآمنة ؟ لقد كانت حتى الأمس فى قبضته ، ولكن . . كل شىء يجب أن يعود كما كان . . وستنحنى الظهور مرة أخرى لتحمل له محفة أيامه المترعة بالعطور !

غير أن الظهور كانت قد انتصبت إلى الأبد على غير ما قدر الباشا الطيب السعيد فقد أجمعت القرية أن تقاوم إلى النهاية ، وألا تستسلم مادام فيها ساعد يستطيع أن يحمل السلاح . . وكانت القرية قد تعلمت كثيراً أن تحارب القرى الأخرى .. وعرفت أنهم سيقبلون بالنهار أو الليل ، يقتحمون الدور يعبثون بالنساء أمام الرجال . ويمتهنون وقار السنين فى الشيوخ ، فأجمعت القرية على أن تخرج النساء والأطفال والشيوخ من الدور .. فتجمعوا كلهم فى الأجران الواسعة خلف بيوت القرية . وبقى الرجال وحدهم فى الدور فى يد كل منهم فأس أو بندقية عجوز — وعسكرت الفرقة الانجليزية فى قصر الباشا ..

ثم بدأ قائدها يوزعها إلى مجموعات صغيرة ، كل واحدة من أربعة جنود وأمرهم أن يهاجموا الدور ليسوقوا الرجال كلهم راكعين إلى قصر الباشا وأوصاهم مستضحكا ألا يشغلهم جمال القرويات عن أداء واجبهم الشريف! وتوزعت المجموعات الصغيرة على الدور وفى صدر كل رجل حلم نمل بمتاع سهل ..

وبدأت تلك البيوت السوداء كحياة أهلها تكتب تاريخاً جديداً للذين نسيهم التاريخ .

كانت أبوابها الخشبية تتمزق تحت ضغط الجنود .. ثم يندفع جندى إلى الدهليز المظلم ، ومن وراءه ثلاثة آخرون .. وشهد كل دهليز فأساً تهوى على رأس أول جنـدى يدخل أو بندقية هرمة تشتعل فى صدره ، أو فلاحاً يلتقط فى سرعة خارقة مدفع الجندى من على الأرض العفنة بالروث .. ومعركة بين ثلاثة جنود وفلاح !! وسقط من سقوف القش والطين كثير من جنود الأمبراطورية ، وكثير من الفلاحين

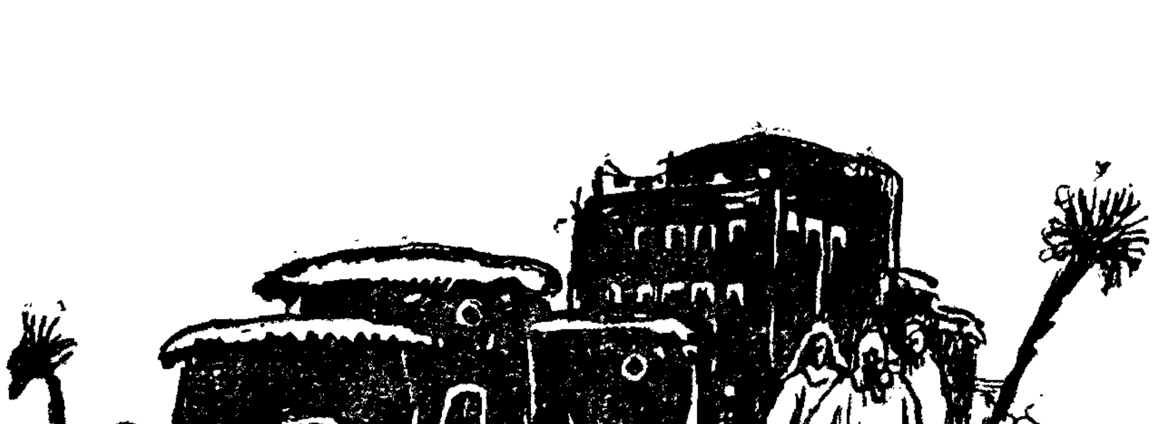
وتعثر فى طرقات القرية بعض جنود يهربون إلى القصر .. وفى القصر تجمع نحو عشرين جنديا هم كل من بقى من حملة التأديب .. وجن جنون الباشا من الرعب .. وأخذ يصـدر أوامره للجنود أن يحرقوا القرية على من فيها .. غير أن الفلاحين كانوا يزحفون إلى القصر ليحاصروا سيده والجنود بينما كان الأطفال والنساء فى تلك الليلة الرائعة قد تجمعوا خلف القصر وأخـذوا يقذفونه بالمشاعل .. ! واشتعلت النار فى مخازن التبن والطلقات تدوى خارج القصر ، والسماء تهتز بهتاف الفلاحين ! وأحس كل من فى القصر أنهم محاصرون ! .. وسيطرت على الجنود الانجليز حسرة مباغتة .. لماذا هم اليوم هنا ؟؟ لحساب من إذن يقتلون الناس وتحاصرهم النيران ليهلكوا فيها كأعواد الهشيم ؟؟

وعلى أضواء النار التى تلتهم كل شىء قفز الجنود من نافذة جانبية ومن ورائهم صاحب القصر ..

ثم مضى الجميع يضربون فى الليل الذى يختلط من ورائهم بالفلاحين ! وعند ما أكلت النار كل شىء فى القصر أخذ الفجر الجديد يلوح من بعيد ، ويسحب شعاعه الهادىء على الدخان . .

ولم يستطع أحد بعد أن يؤدب القرية العاصية .. فما هو إلا قليل حتى عاد «سعد» وصحبه . . وترامى عليه السادة والأتباع لينقذلهم نظام الحكم بأى ثمن . .

ولكن الثورة على الرغم من كل شيء ظلت فى المصانع والحقول والمدارس . . لتحقق للجميع حياة إنسانية لايروعها الجوع ، ولا يلوثها العار ، ولايجثم عليها الظلمات ، ولا تهبط عن حياة الكلاب المدللة فى بعض القصور . . ويوما بعد يوم أخذت الثورة تعرف من هم الأصدقاء ، ومن هو لها عدو مبين . . أو غير مبين ؟





[عندما وضعوا على رأسك تاجاً من الشوك أخذ جبينك المنعكس يدمى ، والشوك ينفذ من رأسك إلى النخاع ، وأتانى صوتك من بعيد يمزق رنينه العذب صراخك المر ، ويسكت المأساة فى الأغوار من كل نفس « وفجأة . . نبتت لك من بين الأشواك براعم غضة . . وتساقط الأشواك من حولك على التراب وارتفع رأسك مزدهيا بنضارة الزهر الجديد « وأخذوا فى ذهولهم يبحثون عن المعجزة التى صنعت كل هذا ، ولكنها لم تكن فى خارجك .. كانت فى الأعماق منك . . كانت تختلط بك أنت !]

اصطكت الأرض الصلدة بالأحذية الغليظة ، وشد الجنود أبدانهم وهم يرفعون أيديهم بالتحية ويلصقون أطراف الأصابع بجباههم البرونزية المليئة بالعرق والغضون ! . .

— تمام يا أفندم .

ثم استداروا وتركوا أيديهم تهبط إلى أجسادهم المتعبة وتتخذ حركاتها الرتيبة المسترخية . . كانوا جميعاً يحلمون بالنوم العميق وكان « الشاويش عبد الله » هو أول من تحرك إلى باب القسم فى طريق العودة إلى المنزل !!

لن يمر الليلة بالمقهى ليلعب « الدومينو » فسيعود قبل مشرق الشمس إلى القسم حيث ينتظره عمل طويل مخيف .

إنه لا يعرف بالتحديد إن كان سيوضع فى عربة تذرع القاهرة . أو سيوضع على ظهر جواد . . ولكنه يعرف فقط أنه فى الغد سيصبح كائناً آخر . . سيطلق النار ؟ ! . .

إن الشاويش « عبد الله » لم يطلق النار على أحد من قبل ولكنه فى الغد سيطلق النار على أية جماعة تسير فى الشوارع أو تتجمع أمام مدرسة أو مصنع . . هكذا صدرت الأوامر ، وقد سمعها ولم يكن أمامه خيار !! وعندما قرأها الضابط الصغير الذى لا تكاد سنه تعلو عن أولئك الذين يملأون الشوارع بالهتاف .. قرع « الشاويش عبدالله » حذاءه على الأرض وأدى التحية العسكرية . بينما أخذت صورة ابنه تتخايل أمام عينيه ! إن ابنه الطالب بمدرسة « التجارة المتوسطة » هو أحد الذين اشتركوا فى مظاهرات

اليوم احتفالا بذكرى ١٣ نوفمبر وسيشترك فى مظاهرات الغد ، وسيظل كثيره من الطلاب يتظاهر على الرغم من كل شيء !!

وكم لقى الطلاب من الجنود طول النهار! وكم لقى الجنود من الطلاب .. ولقد أوشك الشاويش عبد الله نفسه أن يصاب بقطعة من الحجر .. وعلى أية حال فقد ابتلت ملابسه بالماء الذى كان يصوبه الطلاب إلى العساكر ليحملوهم على الابتعاد.

ومع ذلك فلم يفكر واحد من الجنود فى أن يشهر بندقيته فى وجه أى إنسان .. لم يفكر واحد منهم فى أن يقتل . ولكنهم فى الغد مطالبون بأن يقتلوا .. يجب أولا أن يقتلوا كل من قاد مظاهرة فاذا لم تتفرق المظاهرة بعد مصرعه فيجب أن يطلقوا النار على المتظاهرين جميعا بلا استثناء ! هـذا هو واجبهم كما «تقضى التعليمات» .. وهذا هو واجب «الشاويش عبد الله» ولو كان ابنه بين المتظاهرين !

ولكن .. أيستطيع هو أن يفهم أن هذا واجبه كجندى .. ؟ !

لماذا يقتل ابنه أو أحد الذين يهتفون كابنه فى الطرقات ؟

إنه هو نفسه منذ ثلاثين عاما كان يهز فأسه فى القرية ويهتف «يحيا العـــدل» .. ويهتف بسقوط الانجليز وهؤلاء الذين يجب أن يموتوا غداً لا يصنعون غير نفس الاشياء .. ، وعند ما ترك باب القسم كان يفكر فى شمس الصباح ، ، كم من القبور يفغر فاه الليلة ليلقف أجساد ضحايا الغد ؟ والتفت فجأة إلى قسم البوليس فشعر بكراهية مباغتة لهذا البناء الداكن الرهيب .. أيجب إذن أن يفقد هناك كثيراً من معانيه كإنسان ؟! لقد تعلم كثيراً فى هذا المكان .. تعلم أن يغتصب بطيخ الصيف وبرتقال الشتاء من الباعة المساكين ، ، لأنه لا يستطيع أن يحمل من مرتبه شيئا إلى أسرته .. وتعلم أيضا ولكنه لا يطيق .. فهو يشعر الساعة بخجل فظيع من نفسه .. ولكن .. أيجب أيضا أن يتعلم القتل ؟ أيجب أن يكون سفاحا ؟ ، لماذا ؟. من أجل من ؟ ، ومضى فى الطريق يفكر فى الغد : سيلتقى العمال والطلبة والموظفين غداً فى مظاهرة صامتة ..

وتذكر بغتة أن له أخاً يشتغل فى أحد مصانع النسيج . وبدأت صور وجوه عديدة تتخايل أمام عينيه موظفون من قريته يعملون فى القاهرة، الطلاب الذين يسكنون فى حارته .. العمال الذين يلعب معهم « الدومينو » على المقهى ويستضحك معهم لبعض الوقت . . كل هؤلاء يجب أن يقتلهم غداً .. !! وارتعش عبد الله « أيجب أن يقتل كل من يحب ليصبح بطلا ؟» إن رضا الرؤساء وزيادة المرتب والبطولة وكل الأشياء المحببة للنفس تطالبه بأن يقتل ! وتراقصت أمامه الأضواء والظلال كالمسرح .. فقفز إلى أول ترام وحشر نفسه فى الزحام . . وكان الجميع يتحدثون عن مظاهرات اليوم .. وكان بعض الشبان يتحدثون بأصوات مبحوحة .: ولكنه لم يكد يستقر بينهم حتى شعر بنظرات اشمئزاز .. وتناهت إلى سمعه أصوات ثرثرة مختلطة من عربة الحريم .. كل واحدة تروى للأخريات قصة طالب صغير انفرد به الجنود وانهالوا عليه بالعصى الغليظة بلا رحمة..كن جميعاً يتحدثن فى وقت واحد وينتهين بتعليق واحد : « أليس لهؤلاء الجنود أولاد ؟ أليست لهم قلوب؟! » وأحس عبد الله أن كل من فى الترام يبغضه ويعامله ككائن متوحش بشع .. حتى « الكسارى » لم يشأ أن يحييه كما تعود منذ أعوام ! . . وغادر الترام مسرعا ليكمل الطريق إلى بيتـه على قدميه وهو يفكر مشفقا فى التعليمات الجديدة . وعندما كان يهبط السلالم إلى «البدروم» الذى يقيم فى إحدى حجراته أحس بكآبة قاتمة ، ولهفة . . ! ودفع باب حجرته فوجد أطفاله نائمين ، وولده «على» يقرأ من ورقة فى يده على ضوء مصباح الغاز ، ولم يقل شيئاً وخلع ملابسه فى هدوء وترك زوجته تغسل ملابس الصغار المهلهلة : ثم أخذ ينقل بصره بين أولاده جميعاً . وتخيل أنهم يسيرون فى مظاهرات الغد .. ولاحت له رقابهم تميل عن الأجساد والدم يسيل منهـا كالصنبور على أرض الشارع والخيل والعربات والأحذية تروح وتغدو على هذه الأبدان . .

وهز ابنه الأكبر رأسه معجبا بما يقرأ فروع الرجل ودهمه فزع هائل لكأنه

يرى رأسه تسقط على جسده هو أيضاً .. وصرخ فى جزع : «على .. ولد يا على !»

ورفع «على» رأسه الثابت إلى أبيه دهشا .. فغمرت الرجل طمأنينة يمازجها الخجل ..

ودعك على رأسه بيده واستعاذ بالله : وعاد يحدث ولده — فسأله عما يقرأ . .

كان على يقرأ منشوراً ! وأخذ يعيد على أبيه قراءة المنشور ... كان المنشور يتحدث عن حق مصر فى أن تعيش حرة تحت الشمس . . وعن الجوع والمأساة والعار وكل ما صنعه الاستعمار فى حياة المصريين . . وعن الذين يضربون قوى الشعب لحساب السادة المستعمرين وكان الشاويش يهز رأسه فى راحة وهو يقول «أى نعم !» فى الصباح الباكر كان الشاويش «عبد الله» يذرع طرقات القاهرة مع جنود آخرين فى عربة كبيرة مفتوحة كان كل واحد منهم يحمل الخوذة والبندقية وزاداً من الرصاص . .

لم يكن الرجل فى الحق متعب النفس أو الجسد . . كان قد نام جيداً ، وكان على طول الطريق من بيته إلى القسم يداعب الناس كما تعود فى الأيام القديمة الخصبة ..

وكان الشاويش «عبدالله» يحمل فى نفسه صراع الأمس .. وتقدم النهار بالصباح قليلا وبدأت طرقات القاهرة تمتلىء بالناس .. وأمام كل مفرق يلتقى عنده طرقات أربع وقفت قوة بوليس برئاسة ضابط شاب .. وكان «عبد الله» هو أحد أفراد هذه القوة . . وكان الضباط الكبار يطوفون فى عرباتهم الفاخرة على مراكز القوات .. ويؤكدون التعليمات .. وعندما غادر أحد الضباط الكبار القوة التى يعمل بها عبد الله قال للجنود «استعدوا؟» كانت أصوات مظاهرة تقترب . . ولم تكد عربة الضابط الكبير تنفث وراءها الدخان حتى همس جندى عجوز ساخراً : «استعدوا للذبح يا أولاد استعدوا للمجزرة ! باسم الله .. الله أكبر !» وضحك الجنود .. فعاد الجندى العجوز يقول وهو ينظر إلى العربة الفاخرة «طول عمره انجليزى !»

ونظر الضابط الصغير إلى الجنود..لم يقل شيئا ..وتقدمت المظاهرة .. كانت من الطلبة وقد أخذ ينضم اليهم كثيرون من أصحاب الجلابيب .. وكان يقود المظاهرة فتى فى السابعة عشرة ينطلق صوته فى حرارة شبابه الجديد .. لم يكن صوته قد تخلص بعد من أنغام الطفولة .

وصاح الضابط يأمر الجنود أن يصوبوا البنادق .. فتساءل الشاويش عبدالله ساخراً إن كانوا سيحاربون الانجليز ، وإلا فلماذا يطلقون الرصاص!

ودهش الضابط وأعاد الأمر .. ولكن جندياً واحداً لم يتحرك .. وأخرج الضابط مسدسه وبدأ يصوب .. ولكنه وجد عشرات البنادق مصوبة إليه هو .. وفتح الضابط عينيه كالمجنون .. وبدأت يده تهبط بالمسدس! وتوالت عليه الأسئلة: « لماذا يقتل الجنود أولاد؟ .. لماذا يقتلون إخوتهم ..؟» ولم يستطيع الضابط أن يقول شيئاً ..كانت الدهشة قد فتحت فمه على ذهول أخرس..ولم يعد يستطيع أن يفكر حتى فيما ينتظره من جزاء وفى هذا الحى أو ذاك من أحياء القاهرة كان ضباط كثيرون قد رفضوا أن ينفذوا الأوامر ويكونوا سفاحين .. كانوا يتركون المظاهرات تسير بسلام وهم يرددون نفس الهتافات بينهم وبين أنفسهم، ومع ذلك فقد سقط فى ذلك اليوم كثير من الشهداء ..غير أن البراعم كانت قد أخذت تنمو وتزدهر.. وبدأت الأشواك تتناثر على الأرض وعاد الرأس يرتفع من جديد شيئا فشيئاً كتلك الأيام القديمة الجميلة .. والبراعم تأخذ مكانها فى تاج الشوك .




أرض المعركة

« ثلاثة آلاف مصرى قتلهم جنودنا برصاصهم ؟ . لماذا ؟ لأن مصر تريد الحرية ، إن هذا لشيء فظيع يجللنا بالعار إلى آخر الزمان ! »

ثم جلس النائب البريطانى . ووقف وكيل وزارة الخارجية وهو لا يكاد يرفع رأسه . ولا يعرف أين يخفى وجهه أمام الضمير الإنسانى وأمام الحضارة المعاصرة ، ولم يكن الرجل سفاحا كالآخرين فقد قال فى ندم ووجل : « ثلاثة آلاف قتيل ؟ . إن هذا حقا لشيء رهيب مخجل ! »

ثم هبط « المستر هارمسورث » من فوق المنصة . كما صعد اليها ، منكس الرأس ....

ولكن « المستر هارمسورث » لم يعرف بعد الآلاف من قصص العذاب التى جعلت من القرن العشرين عصر الوحوش والأبطال والشهداء !

وأمام منزل العمدة ، جلس رجال القرية فى الفضاء الواسع يشربون القهوة ، ويتطلعون إلى الأفق البعيد ، وينتظرون قضاء ينزل من السماء وهم يبحثون عن الكلمات التى تمسك الحديث ...

ومن حين إلى حين كانت الكلمات تضيع فجأة لتختلج على الشفاه زفرات الندم يجللها الخجل ويضربها القلق المتحفز الحزين !

وكان (الشيخ عبد التواب) يداعب حبات مسبحته فى صمت . كان على غير ما عرفته القرية — اخرس ، رهيبا يخيم على سكونه رنين خاشع . كأنما يحمل قبراً بأسره فى أغوار نفسه .

والشيخ (عبد التواب) رجل فى الأربعين ، ذهب إلى الأزهر منذ عشرين عاما ، ومازال يذهب اليه كل عام ليعود إلى قريته مع الصيف .

فاذا نضجت الحنطة فى الحقول بدأت القرية تنتظر (الشيخ عبد التواب) ليملأ أمسياتها بالسمر الحلو ، وليتناقش مع مقرىء القرية مناقشات حادة تضحك لها القرية ، ولتدفع اليه القرية بآيات القرآن ليشرحها ، وإعلانات نزع الملكية ليفسرها . وليلقى خطبة الجمعة ، ويقرأ على الناس الصحف التى تحمل أخبار المدينة . أو ليقرأ لهم فصولا من الكتب الصفراء على شعاع مصباح ريفى باهت . أو على ضوء القمر فى بعض الأحايين .

و (الشيخ عبد التواب) رجل رضى النفس . غير أنه لم يعد بعد رضيا !

وعلى أية حال فقد أقبل على القرية فى ذلك العام على غير عادته ، قبل أن ينضج القمح فى الحقول ، وعندما هبط أرضه الحبيبة ، لم يكن أحد فى انتظاره ، ولم تهمس فى أذنيه أصداء أناشيد الفلاحات والأطفال الصغار الذين يغنون على الرغم من كل شىء . وإنما قابلته أصوات حزينة نادبة كانت تملأ الأفق فى كل مساء ، وقالت له إحدى عجائز القرية كلاماً قليلا ، فمشى (الشيخ عبد التواب) بين تلال سوداء من حطام بيوت عرفها وشرب فيها القهوة طويلا ، وداعب فيها الأطفال والنساء والرجال . حتى إذا انتهى إلى القبور التى تشرف على القرية من بعيد سالت دموعه فى صمت ، وكأنما هو ماء قلبه الذى كان يصعد إلى العين !....

ثم عاد الشيخ عبدالتواب من القبور . لم يكلم أحداً طوال الطريق . ولم ينظر إلى (كتاب القرية) الذى احترق . ولم يستطع أن يلتفت إلى المسجد الذى رن بمواعظه . ولكنه عندما تعثر بأنقاض المسجد أفلت أنينه المروع ... ثم مضى ... حتى انتهى إلى بيت العمدة الذى لم يبق منه غير فضاء وحجرة متهدمة يطل منها خشب محترق كعروق الفحم !

وأمام بيت العمدة جلس أهل القرية فى الفضاء الواسع ينتظرون قضاء ينزل من السماء ، ويبحثون عن كلمات تقيم بينهم الحديث ...

وحاول العمدة أن يقول شيئاً . ولكن كل رجل كان يجد صوته غريبا

على أذنيه .. وأخيراً قال العمدة وكأنه يحزم كل شجاعته ليتكلم: (ياشيخ عبد التواب!)

ولم ينظر الشيخ عبد التواب إلى العمدة ولم ينظر العمدة «إلى الشيخ عبد التواب»، . . وفى الحق أن أحداً فى القريةلم يكن يستطيع أن ينظر فى وجه أخيه فى تلك الأيام ...

وعاد العمدة ينظر إلى الفراغ . ثم همس ، كأنما يفر خجل يطارده : (أختك شريفة وماتت شريفة ياشيخ عبد التواب ،وحريمك . كلهم أشراف الله يرحمهم ويحسن اليهم ويحسن إلى موتانا جميعاً !)

وقلب الرجل عينيه التائهتين فى الرماد الذى بقى أمامه من دور القرية وتمتم : (شريفة ؟ أشراف ياحضرة العمدة ؟ .) وأخيراً وقعت عينه على عين العمدة . والتقطت النظرات الحائرة كثيراً من النظرات الجزعة .ومرت لحظة مفرغة صماء ، ثم انهمرت الدموع !

وقال العمدة وهو يتنهد ويقلب رأسه ويديه : (العوض على الله .)

كان العمدة يعلم جيداً كيف ماتت أخت الشيخ عبد التواب ، وكيف مات كثير من نساء القرية ، وأن له لامرأة ما زالت تعيش ،وليتها ماتت كابنتها ، وابنها . فانها لتشد شعرها طول الليل ، وتصرخ ، وتدق صدرها بالأحجار التى بقيت من حطام البيوت .

و (الشيخ عبد التواب) لا يكاد يرى أمامه أحداً من شباب القرية الصاخبين الذين تعودوا أن يتلقوا بالرضا الضاحك كلماته اللاذعة المؤنبة وصفعاته فى بعض الأحايين . ولا أحد على الإطلاق من شيوخ القرية الذين كانوا يملأونها بالحكمة الباسمة. لا شىء غير بقايا ذبول ودموع وحطام.

لقد عرف كيف تتساقط حياة الناس فى القاهرة حياة بعد حياة كأوراق شجرة يهزها مارد مجنون غير أنها كانت كالأشجار المقدسة تعمق فى الأرض وترفع إلى السماء : الاوراق تسقط ، فتورق الشجرة من جديد !..

لقد رأى فظائع هائلة فى القاهرة ، ولكن هذا الذى حدث فى قريته لم يسمع به الشيخ من قبل ، ولم يقرأ مثله فى كل كتبه الصفراء .

وكانت القرية تقوم بدورها المقسوم فى الثورة الكبرى . . وفجأة وفى ظلمات الليل انقض مائتان من الجنود الحمر مدججين بالسلاح . والذئاب الجائعة تنقض فى الظلمات .

واقتحمت القوة بيت العمدة ، وأعلن رئيسها على لسان ترجمان من الذين رعتهم أرض مصر وأطعمتهم من جوع . أعلن أنه أقبل ليفتش عن السلاح . . . فقط ليفتش عن السلاح !

ووزع الجنود على بيت العمدة وعلى بيوت القرية . غير أن الجنود داهموا خدور النساء يفتشون هناك عن السلاح . وفى الخدور اغتصبوا ما استطاعوا من حلى النساء . وانتهكوا ما استطاعوا من أعراض النساء . ولم يجدوا سلاحا فى القرية كلها . ولكنهم وجدوا رجالا غضابا يذودونهم عن النساء بالدم فى بعض الأحايين !

فأصدر رئيس القوة أمره إلى أهل القرية أن يتركوا الدور جميعا إلى الخلاء ليمروا أمامه فرداً فرداً ، وليشرف بنفسه على إجراءات تفتيش كل منهم .

وتحت قرع السياط ، وطعنات « السنكى » ، ودوى الرصاص امتدت إلى خارج القرية خيوط بشرية مترنحة ذاهلة من الرجال والنساء والأطفال كان الجنود يفتشون كل رجل ، ويصفعون هذا الفتى بلا مناسبة ثم يركلون ذلك الشيخ فيتهاوى على الأرض وهم يتضاحكون !

أما النساء ! . أية ذكريات . . إن المسبحة لتسقط من يد الشيخ عبد التواب وهو جالس فى صمته فيذكر هذا الذى حدث بالقرية منذ أسابيع كان الجنود يمزقون أثواب النساء بحد « السنكى » . . وبين طيات الأجساد المصرية العارية كانوا يفتشون عن السلاح ، وهم يعبثون بكل

كنوز الجسد الانثوى ! . . ولقد تروق إحداهن لجندى فيغتصبها بين رنين الضحكات والتصفيق . . وتحت أنظار الآباء والأزواج والأخوة والأبناء ...!

فاذا امتنعت إحداهن قتلت . . وإذا استغاثت قتلت . . وإذا انقض رجل للذود عنها فما أسرع ما كان الرصاص يلقيه على الأرض ! ...

وفى تلك الليلة قتل أطفال كثيرون لمجرد أنهم تشبثوا بأمهاتهم . . وما أكثر ما قتل من نساء ورجال وعذارى صغيرات !

وعندما تعب الجنود من الاغتصاب والضحك والدماء ، طلب منهم رئيس القوة أن ينصرفوا فقال أحدهم : « لماذا لا نشاهد منظر اللهب فى هذا الليل الجميل ؟ ! » وطرب القائد للفكرة . . فأمر جنوده باضرام النار فى القرية . . ثم وقفوا من بعيد يتلهون بمنظر انعكاس اللهب على الليل الذى كان يوغل فى صدور الناس بالصراخ والروع والنكير ! .

وعندما أرسل الفجر أشعته الدامية ، انسحب الجنود . . وتركوا وراءهم بقايا رماد يختلط فيه الدم بالجمرات !

وانحنى « الشيخ عبد التواب » يلتقط مسبحته من الأرض . . ومسحها وهو يقبل فى يده بقايا التراب ! إنه ليرى الساعة تلك الوجوه النضرة التى كانت تسقط من حوله فى شوارع القاهرة تحت وابل الرصاص ليختلط منها الدم بالأرض التى مشت عليها طويلا ، ولكنه ينظر إلى قريته فيرى دوامة مخيفة من اللهب والدخان يقف عليها جنود حمر غلاظ يزمون فيها كل من أحبهم ذات يوم . . ليبقى هو من بعدهم وحيدا كأنما فقد الحياة نفسها !

. . .

وثقلت الجلسة الصامتة على نفس العمدة فنادى « يا شيخ حسن ! »

كأنما كان يريد أن يغرى مقرىء القرية الكفيف بالشيخ عبد التواب ليدخلا فى مناقشة ضاحكة كما تعودت القرية أن تشهد فى الأيام الجميلة الذاهبة ولكن أحداً لم يجب ، وأجهش صوت من أقصى المكان فى عتاب يحمل

العزاء : « يا حضرة العمدة ! » ، وتمتم العمدة : « العوض على الله ؟ . . يا أهل الله ، الظالم له يوم ! الله ينتقم منه ! »

وانفجر الشيخ عبد التواب صائحا بكل أحزانه التي تختلط فيها الثورة بالجحود : « الله ينتقم ؟ !كيف يا حضرة العمدة ؟ ! قل لى ! . . يا شيخ اسكت ؟ . . إنما من أنفسكم سلط عليكم ! . . الله ينتقم منا . . منا ! »

كان الشيخ « عبد التواب » فى انفجاره يتذكر ما شاهده هو فى القاهرة، ولكن أهل القرية المحزونين لم يفهموا ، ومدوا رؤسهم فى حيرة متسائلة ، وفغرت الأفواه ؟ .

وكما تعود الشيخ عبد التواب أن يشرح للقرية ، أخذ يتحدث عن مظاهرة القاهرة وكيف يسخر الانجليز الجندى المصرى لقتل أخاه الذى يطالب بحريته ؟ كيف يغدق الانجليز على ضابط مصرى يشد الثوار إلى ذيل حصانه ويجرى بالحصان والضحية وراءه تتخبط على الأرض وتصطدم بسنابك الخيل ، حتى تموت ! . . وهو سعيد بهذا كأسعد ما يكون بكل عمل شريف

وهنا وقف الفلاحون صارخين « آه ، . آه ! ؟ »

وسكت « الشيخ عبد التواب » .

قد فقد كل شيء ، ولم تعد الحياة شيئا يستحق أن يحرص عليه .

من قبل كان « الشيخ عبد التواب » يضرب من أجل حياة أفضل أما اليوم فالحياة عنده كالموت والموت كالحياة ، ولكنه قبل أن يموت يجب أن يثأر من الذين جعلوه يفقد طعم الحياة ، أنه يريد أن تذكر هذه القرية أن الشيخ عبد التواب قد ثأر لها

ولكن معركته ليست هنا فى القرية ، ! ..

وقام الشيخ عبد التواب فجأة وهو يقول : « أنا راجع ! » ، وسأله الفلاحون أتراه يعود إلى الضابط الذى ربط الثوار فى ذيل حصانه ؟ . فقال عابسا : « نعم ! » ، وعبثاً حاولوا أن يمسكوه فى القرية ، فقد مضى

وأوصاهم أن يضربوا من جديد ولو أحرقت القرية إلى آخر شيء حي !
ويصل الشيخ عبد التواب مسرعا ، ومن حوله الرجال يصيحون : « يحيا العدل ! »
وهكذا انطلقت الأصوات مجتمعة لأول مرة منذ الحادث كأنها وجدت نفسها من جديد
وعندما كان الشيخ عبد التواب يقبل آخر رجل من مودعيه ، سأله الرجل : « متى ترجع بالسلامة ؟ » ولم يجب الشيخ عبدالتواب . وانحدرت من عينه دمعة حجبت عنه مناظر قريته الحبيبة ؟

. . .

ولم يعد الشيخ عبد التواب » إلى القرية ، ولم يذق السلامة منذ مضى إلى القاهرة !
وأن القاهرة لتذكر أنه صنع أشياء عجيبة فى الثورة ، وانقذ كثيرا من المصريين من أيدى الانجليز وثأر لكثير من الأرواح
أما القرية فلن تنسى أبدا ، أنها — رغم مضى ثلاثين عاما — مازالت تذكر حين تبكى شهداءها الكثيرين ، ما زالت تذكر أن الشيخ عبد التواب قتل تحت سنابك خيل ضابط مصرى — نعم ، مصرى مع الأسف — وأنه ظل يهتف والحصان يجره على الأرض ودمه ينزف : « تحيا مصر ! »



للمؤلف :

من أب مصرى إلى الرئيس ترومان (شعر)

الطبعة الرابعة

تطلب من مجلة الغد

١٨ شارع ضريح سعد بالمنيرة

الطبعة اللبنانية

تطلب من بيروت — مجلة الثقافة الوطنية

تحت الطبع

محمد رسول الحرية

الغد

الفن فى سبيل الحياة

تصدرها

طليعة الكتاب والفنانين

مجلة شهرية ثقافية

١٨ شارع ضريح سعد بالمنيرة

يصدر

فى أول يونيـة سنة ١٩٥٣ كتابا جديدا

من الأدب الروسى الخالد

كتابا كتبه فرد ليقرأه شعب

« مخلوقات كانت رجالا »

للكاتب الروسى الخالد

مكسيم جوركى

ترجمـة

سعد توفيق

ترجمة حرفية عن الروسية

